

## العبقريّة التونسية

قَدْ تَنَافَسَلُ الشُّعُوبُ وَالْأُمَمُ بِاعْتِدَالِ الْإِقْلِيمِ وَطَيْبِ الْهَوَاءِ وَخَصْبِ الْأَرْضِ وَأَسَاعِ الْعُمُرَانِ ، وَقَدْ تَنَفَّخَرُ بِكُرْمِ الْمُحَدَثِ وَشَرَفِ الْمُنْتَبِ وَعِرَاقَةِ الْأُمَجَادِ وَقَدَمِ الْمَائِثِ . وَلَكِنَّهَا حَرِيَّةٌ بِأَنْ تَتَبَارَى وَتَتَبَارَزَ فِي اتِّقَادِ الْأَذْهَانِ وَصِحَّةِ الْعُقُولِ وَنَفَازِ الْعَزَائِمِ وَسُمْرِ النَّفُوسِ ، فَطَلَّكَ هِيَ دَلَائِلُ الْعِبْقَرِيَّةِ وَشَوَاهِدُ التُّبُوغِ وَالْأَلَمْعِيَّةِ .

\* \* \*

وَمَتَى عَطَفَتْ عَلَى الثَّقَافَةِ التُّونِسِيَّةِ تَتَعَرَّفُ أَعْلَامُهَا وَرِجَالُهَا تَدْرُسُ أَثَارَهَا وَمُؤَنَاتِهَا وَتَتَقَصَّى مَنَاجِحَهَا وَمَوَاقِفَهَا وَتَسْتَقْرِئُ قَوَائِدَهَا الْكَلِمَةَ وَمَقَاهِيمَهَا الْكَبْرَى انْتَهَيْتْ إِلَى عَجِيبِ الْحَقَائِقِ وَطَرِيفِ النَّتَائِجِ وَالْفَيْتِ ثُمَّ سَوَانِجِ ذَاتِ وَمِيزِ وَالتَّمَاعِ وَخَطَرَاتِ ذَاتِ بَرِيقِ وَاتِّلَاقِ وَوَجَدَتْ نَبَاهَةَ عَقْلٍ وَثُوبَ رَأْيٍ وَنِظْفَةَ إِحْسَاسٍ وَصَادَقَتْ مِنْ أَقْبَاسِ الْعِلْمِ وَوَقَدَاتِ الْفِكْرِ وَجَذَوَاتِ الرُّوحِ مَا لَنْ تَقْضِي مِنْهُ الْعَجَبَ وَأَنْ تَعْمِدَ فِيهِ الْأَرْبَ .

\* \* \*

فَإِذَا انْعَمَتِ النُّظَرُ فِي مُخْتَلَفِ أَطْوَارِ الثَّقَافَةِ التُّونِسِيَّةِ وَتَقَفَتْ الْبَصَرُ فِي شَتَّى أَوَارِ الْفِكْرِ التُّونِسِيِّ اسْلَمَكَ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ التُّونِسِيِّينَ كَانُوا فِي الْعُلُومِ أَهْلَ تَأْسِيسٍ وَتَنْظِيرٍ وَأَصْحَابَ رِيَادَةٍ وَسَبْقٍ وَابْتِكَارٍ وَكَانُوا ذَوِي نَزْعَةٍ وَاضِحَةٍ إِلَى تَثْبِيتِ أُصُولِ الْمَعَارِفِ وَإِرْسَاءِ مَبَادِيئِهَا وَتَأْمِيلِ مَنَاجِحِهَا وَتَدْقِيقِ قَوَاعِدِهَا فَقَدْ وَضَعَ يَحْيَى ابْنُ سَلَامٍ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي أُصُولَ عِلْمِ التَّفْسِيرِ وَكَانَ الْإِمَامُ سَحْنُونُ صَاحِبَ مَذْهَبٍ مَتَّفِقٍ فِي الْفِقْهِ وَالْقَضَاءِ ثُمَّ رَتَّبَ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ « أَحْكَامَ السُّوقِ » وَأَصْلَ ابْنِ الْجَزَّارِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ مَبَادِيَّ عِلْمِ الطَّبِّ ، وَجَاءَ « عُمْدَةُ » ابْنِ رَشِيْقٍ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ بِقَوَاعِدِ نَقْدِ الشُّعْرِ وَقَوَائِنِهِ وَقَبْلَهُ وَضَعَ الْقَاسِمِيُّ أُصُولَ عِلْمِ التَّرْبِيَةِ ، وَفِي الْقَرْنِ السَّابِعِ أَنْشَأَ ابْنُ مَنْظُورٍ أَهْمَ مُعْجَمٍ عَرَبِيٍّ مَبِينًا مِنْ خِلَالِ « لِسَانِ الْعَرَبِ » أَفَانِينَ عِلْمِ الْمُعْجَمِ ، وَجَاءَ حَازِمُ الْقُرْمَاجَنِي فِي الْقَرْنِ تَحْسُسَ بِمَنْهَاجِ تَقْدِيمِ مَبْنًى مُسْتَشْبِرٍ بِالْبَالِغَةِ وَالْمُنْطَقِ وَالْفَلَسَفَةِ وَلَمْ يَأْلُ الْقَرْنِ الثَّامِنِ حَتَّى كَانَ ابْنُ خَلْسُونٍ قَدْ

كَلِمَةُ  
الْمَعْدَد

بِقَلَمِ :



الْحَبِيب  
الدَّرِيدِي

أصل مبادئ علم مستحدث لم يكن للناس به عهد قبله .  
\* \* \*

وإذا تأملت هذه العبقرية التونسية أذاك الدرس إلى أن تلك  
التصانيف والتأليف مخيرة عما كان عند أصحابها من علم وتذوق  
وبحث وتمحيص وتثبت واعتدال ومثبته عما تزودوه من مناهج في  
الدرس والتأليف حداثية رائدة بالنسبة إلى بيئة ثقافية  
عربية ما زالت تدين بالنقل وبالغرفة الصوفية  
الحسية اللدنية .

\* \* \*

ولعل أعجب ما يمكن أن ينهيك إليه البحث هو أن الثقافة التونسية  
كانت بين ثقافات العالم جميعها الوحيدة تقريبا التي لم تعرف ما  
عرفه العالم من عصور ظلام وقرون انحطاط ، فحينما كانت حضارة  
الشرق وحضارة الغرب تغطان معا في سبات عميق كان الفكر  
التونسي حيا نابضا متألقا وكان العقل التونسي ينتج ويبدع ويبتكر  
في مختلف مجالات المعرفة وفي شتى فروع الثقافة والعلوم والفنون  
والآداب ، ألم يظهر ابن منظور وحازم القرطاجني وابن خلدون وابن  
عزقة والرحالة الديجاني وابن أبي دينار والوزير السراج في تلك  
العقود التي غشيت العالم بالظلمات وجللت بسجوف من الغياهب  
والعمىات <http://Archivebeta.Sa>

\* \* \*

ولم يتوقف عطاء العقل التونسي ولم يتعطل نبضه ولم ينضب  
معين الإبداع التونسي ولم يجف نبعه فجاء بعد أولئك الرواد  
الأوليين جيل جديد من رجال الفكر والثقافة والإصلاح من أمثال ابن  
أبي الضياف وخير الدين ويبرم الخامس ثم تلتهم نخبة  
ثيرة من ذوي العقول المتحررة والمهج المتوثبة فكان  
الطاهر الحداد وأبو القاسم الشابي ومحمد الفاضل بن  
عاشور ومحمود المسعودي وآخرون .

\* \* \*

وما تزال للعبقرية التونسية فتوحات وبارق ولمعات .



## مطماطة

### " الحوش من المخزن الفلاحي إلى الفندق السياحي "

بقدم : محمد بالرائد

تندرج هذه الدراسة ضمن إشكالية التغيير الحضاري وتنمية المجتمع (1) وهي تطمح إلى الوقوف عند عوامل التحول في قرية جبلية بالجنوب التونسي ألا وهي " مطماطة القديمة " خاصة وأن القرية هي أكثر مظاهر الإستقرار البشري إنتشارا على سطح الأرض (2) .

والمعلوم أن القرية تجسد نسيجاً اجتماعياً ونمطاً إقتصادياً متميزين ، حيث أنها برزت تاريخياً عندما « إنتقل الإنسان من مرحلة الجمع والإلتقاط ومطاردة الحيوانات التي تهيم في الفيافي والقفار إلى مرحلة الرعي والزراعة وهكذا إنتقل الإنسان من مرحلة البحث عن الطعام إلى مرحلة إنتاج الطعام والمعيشة الثابتة المستقرة في قرية بعد أن إكتشف الزراعة وفادتها فأصبح منتجا للغذاء ووجد نفسه مضطرا أن يرتبط بمكان واحد وهو الأرض التي يزرعها » (3) .

عندئذ تكون القرية تجسيدا لتطور الزراعة أي الفلاحة اليوم بمنتوجاتها المختلفة حيث يعتمد الإنسان إلى خدمة الأرض لأجل توفير حاجياته الأساسية . إلا أن الأمر يصبح غريبا عندما ترتبط القرية بالسياحة ، أو عندما تكتسح السياحة فضاءا لطالما كانت الفلاحة المورد الأساسي لسكانه . مثل هذا التبدل يتفق وراه عوامل تستدعي البحث فيها وفي آثارها . وهذا التبدل يبدو واضحا لزائر مطماطة ، فكما إقترب منها تواضع له أشجار التين والزيتون والنخيل وهي أشجار جعلها أهالي مطماطة تتساكن مع الحلفاء ، الشيوخ وغيرهما من النباتات الجبلية . ولكن عند المنعرجات الأخيرة تظهر للزائر عبارات الترحيب والإستقبال وقد نقشت على حجارة بلفات ثلاث : العربية ، الفرنسية ، والانجليزية عبارات الحفاوة هذه تبدو بديهيّة في مجتمع فلاحي عرف بكرمه . ولكن أن تكتب على الجبل وعند مدخل القرية فإنها تتجاوز الكرم ، والترحاب لتصبح جزءا من ذلك المشهد الجبلي ، المخضر بفعل نشاطات الأهالي الضارية في القدم ، ولكن هذا الجزء من المشهد صار يحتل الحيز الأكبر من ذاكرة الزائر . بل إنه باعث الرغبة في الإطلاع على خصوصيات القرية . ولكنه في المقابل يحث الباحث على البحث وسبر أغوار النسيج الإجتماعي لقرية طوقتها جبال عرفت بإسمها " سلسلة جبال مطماطة " . إذ لا شك أن تلك العبارات مؤشرات لتغيير نوعي وكيمي لا مناص من الوقوف عنده ، فبين الترحاب الشفوي والترحاب المنقوش على الحجر مسافات تستدعي قطعها للوقوف على أسرار مطماطة .

### 1 - منهج البحث :

مثلما تمت الإشارة إليه فإن هذه الدراسة تندرج في سياق التغيير الحضاري وتنمية المجتمع . وهي منهجيا تننزل في صلب الدراسات الوصفية التي تستعين بما يسمى في العلوم الإجتماعية بدراسة الحالة التي تعتبر وسيلة هامة « للوصول إلى فهم خاص لحالة فردية ، وبالرغم من عدم

قابلية نتائج تلك الدراسة للتعميم فإنها تتيح للباحث إحاطة شاملة بالموضوع تيسر له دراسة أكثر عمقا رأسيا وأفقيا » (4) .

وقد إستعنا في دراسة الحالة هذه بالمقابلة ، حيث مكنتنا المقابلات التي أجريناها مع بعض كبار السن الذين واكبوا مجمل التحولات التي عرفتھا مطماطة من الوقوف عند المراحل الكبرى لعملية التغيير ولكن المقابلة لم تكن الأداة المنهجية الوحيدة بل تم إعتداد الملاحظة بالمشاركة باعتبارھا طريقة للحصول « على معلومات صعبة المنال » (5) لتدعيم الأداة الأولى فهو منهج كفي في مجمله . لكن في البداية لابد من الوقوف عند المعطى الجغرافي " لمطماطة القديمة " لما لذلك من أهمية في فهم التبدلات التي عرفتھا القرية .

## 2 = المعطى الجغرافي " لمطماطة القديمة " شناية الجبال والجفاف

إن الترقى إلى المعطى الجغرافي لا يعدو أن يكون مسألة منهجية لا غير ، بحيث أننا لا نتحدث عن الحتمية الجغرافية تماما كما لا نتحدث عن المصادفة . أي أن تسليط الضوء على أثر المحيط الطبيعي في حياة أهالي مطماطة لا يجعلنا نتغافل أو نقل - عن / من - أهمية العوامل الأخرى .

لكن المعطى الجغرافي - ويدون أدنى شك - يمارس نفوذا أو تأثيرا في الإنسان والمجتمع والحضارة . و « لما كانت الحضارة والمجتمع والطبيعة البشرية - الأبعاد الإجتماعية الثلاثة - ظواهر متغيرة فلا يمكن أبدا اللجوء إلى العوامل الجغرافية الثابتة نسبيا لتفسير تلك الظواهر المتغيرة » (6) بمعنى أن العوامل الجغرافية نادرة التحول أو بالأحرى بطيئة التبدل تساعد على فهم الأبعاد الإجتماعية ولا تفسرها بمفردها . أي أن الأهمية التي تولى للمعطى الجغرافي ليست مستمدة من مدى تأثيره في حياة الناس فحسب بل هي مستمدة من كونه مجموعة موارد وإمكانات يتصرف فيها العقل ويتفاعل معها باستمرار سعيا لتحقيق حاجياته وبذلك يحدث التأثير غير المباشر لهذا المعطى « فلا البيئة تستأثر في الإنسان والجماعة ولا الإنسان والجماعة يتفردان بالتأثير فيها ، بل هناك تفاعل بينهما » (7)

والمعلوم أن كل كائن حي مضطر لأن يضمن الحصول في محيطه الجغرافي على مصادر كافية لسد حاجياته ، إذ لابد من المحافظة على بقائه . وضمن هذا السياق نعرض إلى المعطى الجغرافي لمطماطة القديمة والسمات المميزة له .

وأولى هذه السمات الجبال ولا أدل على ذلك من تسمية جبال مطماطة وهي سلسلة جبلية تفصل سهلي الأعراض والجفارة عن الظاهر التونسي وتمتد هذه السلسلة إلى داخل الأراضي الليبية . ومطماطة القديمة تقع بين مجموعة من الجبال وهذه الجبال التي تطوق القرية لها تأثيرها في حياة الأهالي من حيث مثلا طبيعة ونوعية النشاط الفلاحي (8) . غير أن هذا الموقع الجبلي يفتح - أو بلفة أكثر دقة - يشرف على سهلين ، جنوبا سهل الظاهر وهو الفاصل بين رمال الصحراء وجبال مطماطة ، وشمالا سهل الأعراض الممتد بين مطماطة وقابس وصولا إلى جهة مارت شرقا والحامة غربا .

هذان السهلان شكلا على مر التاريخ مزارع مطماطة ، وإذا كان أهالي مطماطة لم يعرفوا



ظاهرة الهطاية ولم يرحلوا إلى الشمال لأجل عمل فلاحي موسمي (9) كما هو الشأن لبعض قبائل الجنوب الشرقي كالحوايا مثلا ، فإن كون هذين السهلين يجسدان المجال المزروع لا يبرران لوجودهما مثل هذه الفكرة التي تستعدو إليها لاحقا .

تتم عملية إستغلال هذين السهلين في السنوات الممطرة عبر تقسيم داخلي يراعي حاجيات كل عائلة وإمكاناتها ( عدد أفرادها ، عدد الحارثين ويسمون بالحراثة ، عدد الجوايد أي الحيوانات التي تجر المحارث ... ) غير أن التوجه إلى زراعة هذين السهلين والإستفادة منهما قدر الإمكان لم تؤدي إلى إهمال أهالي مطماطة محيطهم الجبلي الذي يبلغ معدل الأمطار به حوالي 220 مم بل إنهم عمدوا إلى إستغلاله فأقاموا بين الشعاب ، الطوابي وهي حواجز رملية ، مدعمة بالحجارة وسموها جسرا ، وغرسوها تينا وزيتونا ونخيل ، الزيتون هو الأقرب إلى الطابية وفي ذلك غاية وهي الحفاظ على المياه المجتمعة على مقربة من الطابية أو بلفتهم " المنقع " . ثم بعد الزيتون غرسوا التين فالتخيل واستغلوا المساحات الموجودة بين الأشجار لزراعتها حبويا في السنوات الممطرة ، بل إنهم زرعوا الفواكه مثل الفول ، العدس ... وفي السنوات التي ينزل فيها المطر في النصف الثاني من الربيع يزرعون " البحيرة " ( الدلاع والبطيخ )

لقد حاول أهالي مطماطة الإستفادة قدر الإمكان من المعطى الطبيعي المتوفر لديهم ، لقد كان عدم إنتظار الأمطار المتسبب في ندرتها أحيانا وفي وفرتها حد الفيضانات في فترات أخرى الهاجس الرئيسي لسكان هذه القرية الجبلية : « يقول الشيخ عياد أقدم شيوخ مطماطة " إنها قصة صراع طويل ، لقد زرعنا النخيل والزيتون والتين لكن المطر كان كثيرا ما يخللنا ، أحيانا لا يسقط إلا في فترات قليلة وأحيانا يتحول إلى سيول جافة لا تجدي أمامها كل الجسور الرملية التي نقيمها » (11)

ولأجل مقاومة عدم الإنتظام هذا اضغروا المواجل لأنهم على قناعة تامة بأن « المشكلة التي تواجه مطماطة بحق هي المياه » (12) ولا غرابة أن جعلوا في « كل بيت نظام لجمع المطر يبدأ من أعلى المنزل حيث تحفر قناة تهبط إلى أسفل لتصب في خزان صغير بجانب الباب » (13) . إنها حياة الكفاف ، حياة الإحتياط ، والإحتياط يستدعي الخزن وما المواجل إلا طريقة لتوفير الماء عند غياب المطر أو بالأحرى إحتجابه . لقد كان للرفش الدور الحاسم في نحت الكيان الحضاري لمطماطة - لا في حفر المواجل فقط - بل في حفر الحوش الذي يعتبر بحق محور الحياة .

وعموما المعطى الطبيعي أو الجغرافي لمطماطة يتسم بنوع من القساوة ، فالمناخ شبه جاف ، وأمطاره غير منتظمة ، صيفة حار تهب خلاله رياح الشهيلي الحارة التي تعرف " بالغربي " أما شتائه فبارد نسبيا ، فيما يجسد الربيع والخريف بشكل عام إمتدادا للفصلين الأولين .

ولا شك أن لمثل هذا العامل الجغرافي دوره البارز في تشكيل المعالم الحضارية لأهالي مطماطة ولكن لا يمكن الحديث عن دور وحيد أو رئيسي لهذا المعطى ، فلقد ألفه أهالي مطماطة ، وخبروا أسرارهم ومن هذا المنطلق بنوا حياتهم القروية بخصائصها التي ستعرض إليها لاحقا .

## مطماطة القديمة

لعل الملاحظة الهامة التي تستدعي الوقوف عندها هي أن مطماطة تجسد ما يعرف في العلوم الإجتماعية بـ « جماعة المكان » وتعني « الجماعة التي لا تعيش فيها الفئات العائلية منزلة لوحدها وإنما تتصل بفئات عائلية أخرى تربطهم جميعا صلات الحوار ، وكثيرا ما تتألف جماعة الجوار من جماعة الدم ومن إجتماعهم تتألف القرية فتنتج من حيات تلك الجماعة عادات جماعية وعمل جماعي وأخوة متينة وثقة متبادلة وتعاون متبادل » (14) والتسليم بأن مطماطة « جماعة المكان » يفضي بالضرورة إلى الحديث عن مطماطة كقرية وهو ما يجعلنا في البداية نحدد خصائص القرية عامة .

إجتماعيا القرية : تتمحور حول العائلة الممتدة « إنها كثيرا ما تكون مجموعة من العائلات وتتكون العائلة الممتدة من عدد من الأسر التي تحمل كنية واحدة وتعود بنسبها إلى جد واحد تستمد منه كنيته حتى يجوز أن يقال أن القرية هي « عائلة العائلات » متوحددة بأصولها وكثافة التزاوج فيما بينها » (15)

من هذا المنطلق تجسد مطماطة القديمة قرية قوامها القرابة ، القرابة الدموية ، بمعنى أن العلاقات التي تحكم أفرادها بعضهم ببعض علاقات أولية ، أنه التضامن الآلي حسب تعبير ايميل دوركايم . أما إقتصاديا فإن القرية تمحورت حول الحقل والبيت حيث يتخذ القروي طابعه « الخاص من علاقته بالأرض الزراعية ، تماما كما يتخذ البدوي طابعه المنفرد من الصحراء ... ويعتبر القروي حتى أعماق لاوعيه إن « الكرامة في الأرض » ، أنها مورد رزقه ، ومصدر طموحاته وأماله ومكانته ومحور علاقاته ، ومقر جنوده في الحياة والمات . من هنا إن الفلاح يخاف أن يفقد الأرض ربما أكثر مما يخاف أن يفقد حياته . بل إنه لا يخاف الموت بقدر ما يخافه البدوي والحضري لأن الموت بالنسبة إليه إستمرار في الأرض » (16) .

ضمن هذا الإطار يمكن أن ننظر إلى البعد الإقتصادي لمطماطة القديمة ، ويمكن أن يفهم ذلك التميز أو التفرد الذي يعيشه أهالي مطماطة مقارنة بجيرانهم الشرقيين الحوايا ( أهالي بني خداش ) والجنوبيين المرازيق ( أهالي بوز ) وأيضا الغربيين بني زيد (أهالي الهامة ) . فأهالي مطماطة عرفوا الإستقرار ، ولم يكونوا أبدا رحل منتجعين بل إنهم مارسوا تربية الحيوان أي الماشية « ككسابة » أي كمالكين لا غير ، فلم يمارسوا الرعي كحرفة أو مهنة ولذلك إلتجأوا إلى جلب أولاد الشهيذة ، أولاد سلطان ، الزرقان ، الحمادية ... أنه شكل جديد من تقسيم العمل » (17) . وفي المقابل إلتجأوا إلى خدمة الأرض ، غرسوا كل الشعاب ، بعد أن أقاموا الطوابي لقد ظهر مصطلح الغاية لديهم تماما كذلك المصطلح المتداول لدى أصحاب الواحات ، والفارق هو في مدى وفرة المياه وطبيعة الأشجار . فمياه الواحة باطنية ، متوفرة دائما ، أو منتظمة ، أما أشجارها فهي النخيل أمامهما فتمحورت حياتهم بذلك حول الجسر ، الطابية ، الأشجار وخاصة الزيتون حتى أن أهالي بوز كانوا يقدمون إلى مطماطة بحثا عن الزيتون والزيتون الجاف بإعتباره مادة غذائية هامة بالنسبة للترحال والراحل وراء قطيعه تماما كالتمر . والأمر لا يقتصر على بوز بل كذلك أهالي بني خداش لذلك يمكن أن نتحدث عن تكامل إقتصادي أو نورة إقتصادية لسكان ما حول الظاهر التونسي .

فأهالي نوز يوفرون التمور ووبر الإبل خاصة ، والإبل في حد ذاتها باعتبارها وسيلة بالنسبة إلى أهالي مطماطة لنقل المحصول من الغابة إلى الحوش أي إلى القرية . أما أهالي بني خداش فيوفرون الصوف وشعر الماعز ، البعض يوفّر الغذاء ، المواد الغذائية ( أهالي مطماطة ) والبعض الآخر يوفّر المواد الغذائية ( اللحوم ) الأغذية ( الصوف ) والحيوانات ( وسائل العمل الفلاحية ) وهؤلاء هم أهالي نوز وبني خداش .

بين القرية والبادية التونسية ، في الجنوب التونسي ، كانت علاقة تكامل لا تنافر إلى حد كبير وخاصة بعد أن أفنك الإستعمار أراضي الشمال الخصبة وزرعها منها بذلك دورة إقتصادية تكاملية تشارك فيها جميع فئات البلاد ، ومثل هذا الأمر يحيلنا إلى ملاحظة هامة وهي أن الإكتفاء الذاتي كان مطمحا لكل الجماعات من بدوية مترحلة فلاحية قروية ، لكن طريق تحقيقه تمر عبر التعاون بين هذه الفئات ذاتها .

عندئذ يمكن القول إن الغابة تجسيد الإقتصاد الفلاحي الذي يميز القرية ، إلا أن الغابة ، أي مجال العمل الفلاحي : لا تخلو من تمييز فحرب الغابة يوجد المايل تماما كما يوجد الحوش الذي يسمى في هذه الحالة " المراح " أي مرقد الأغنام ليلا ونهارا ، أي أن العمل الفلاحي يقتضي تلك الثلاثية : الغابة أي الطواهي المغروسة تينا ، زيتونا ونخيل ، المحروثة حبوبا وفواكه في السنوات الممطرة ، ثم المايل مصدر المياه ، والمراح أين تنام الحيوانات ويطعها أصحابها .

ومثل هذه الملاحظة تقودنا إلى أخرى هامة وهي أن أهالي مطماطة يمارسون الترحال من القرية باتجاه الغابة ولا يعيدون إلا بعد نهاية موسم الحصاد ليتفرغوا لموسم الحفلات من أعراس وختان وأيضا لزيارة الأولياء . فالملوم أن حياة أهل الريف بالأراضي تمحورت حول الحقل والبيت أو العائلة ومزارع الأولياء وبيوت العبادة .

لكن هذه الرحلة السنوية من القرية وإليها تسمح بجمع الحشيش ليصير مخزوننا من العلف ، حيث لا ينقل إلى القرية وتحديدا إلى الحوش إلا بعد أن يصير جافا بمفعول حرارة الشمس ، وهو يشكل مادة غذائية للحيوانات التي ستربط في الحوش هي الأخرى لاحقا ولكنه ليست المادة الغذائية الوحيدة فهناك التبن وأوراق الزيتون الجافة التي تعرف " بالصريع " . وتسمح هذه الرحلة كذلك بالاستفادة من الحليب « الشياه الحلوب التي يسلمها لهم الرعاة الذين يحتفظون بالبقية غير المخصة - حتى الفترة التي لم تعد تدر فيها حلبيا » . (19)

ومع انتهاء موسم الحصاد يعود أهالي مطماطة . فانتجاعهم يمتد على مسافة زمنية غير طويلة ، كما أن تنقلهم يمتد بين الغابة والقرية . يعيدون إلى الغابة في الصيف يوميا ، أو أسبوعيا لجني التين ولكنهم لا يقيمون بها بل يعيدون بالتين إما جافا للخرن أو طازجا للاستهلاك اليومي ، إنه اقتصاد الكفاف بني على أضلاع ثلاثة غير متساوية ، الغابة هي العنصر الرئيسي ، المراح والمايل العنصر الممتد للأول ، والماشية عنصر ثالث متمم لكليهما لكنه لا يحظى بذات الأهمية .

محصول هذا الاقتصاد كله ينقل إلى الحوش ، إن باطن الأرض المنطلق وهو المنتهى ، مثل هذا اللامع قد يكون حافزا لحفر الحوش ليصير هذا الأخير عنوان حضارة متميزة عن غيرها .

#### 4 - الحوش : أو فعل الرفش في الكيان الحضاري لمطماطة :

ثمة ملاحظة هامة تستدعي الوقوف عندها ألا وهي التالية :

- أهالي مطماطة استعانوا كثيرا بالرفش ، الممول لنحت كياناتهم الحضاري ، فنحن نعلم أن الحوش حفر في باطن الأرض تماما كالمناجل والمعصرة ، فكل معاصر الزيتون في مطماطة حفرت في جوف الأرض ولعل في خضم عملية الحفر هذه تختلط الأبعاد الشعورية باللاشعورية ويستدعي الوقوف عند الموضوعي والذاتي في هذه الأبعاد من خلال تركيزنا على الحوش .

السؤال الأول الذي يستدعي الإجابة لأول وهلة هو ما الحوش ؟

الحوش « منزل متكامل في جوف الأرض ، الغناء هو الجزء المكشوف من المنزل تحيط به الغرف المحفورة داخل جوف الأرض » (20)

ولو ترجمنا هذا التعريف إلى لغة مطماطة لوجدنا الحوش مجموعة من الديار ( الدار = بيت أي غرفة ) . وتسمى كل دار غارا ، يتوسط هذه " الغيران " أي الدور فناء يسمى الرحبة وهي مرتبطة في عددها بعدد أفراد الأسرة . وتتوسط هذه الدور " الدار الكبيرة " ويكون بابها منفثا على السقيفة أي على المدخل ولكن لا يعني هذا أن ما بداخلها سهل الرؤية ، إذ أن مدخلها يحتوي على مدخل يعرف " بالقوسية " ويتسم بالضيق ، ويانتهاء القوسية - التي تمتد على مسافة تتراوح بين المتر ونصف والمترين مع عرض لا يتجاوز المتر الواحد - تبدأ " الدار الكبيرة " وهي أكثر إتساعا على الجانبين الأيمن والأيسر مما لا يسمح برؤيته ما بداخلها إذ هي تنتهي " بديكان " أي غار صغير كثيرا ما وضع عليه غطاء ، وهذه الدار الكبيرة هي ملهى كبار العائلة : الجد والجدة ، الزوج والزوجة وتمتد باقي الدور على أطراف الفناء ( = الرحبة ) ، لكل إبن من المتزوجين دار والفتيات الغازيات دار كالفتيان ، ولكن الدار الكبرى هي الوحيدة تحوي أسرار العائلة ، فحتى بندقية رب الأسرة لا تنام إلا في تلك الدار حتى وإن خرج بها أحد الفتيان للصيد . والملفت للنظر هو أن دار الصبايا عادة ما تكون على مقربة من المطبخ - وهو بدوره محفور ، وذلك لاعتناء الفتيات بشؤون المطبخ وشؤون المنزل عامة ولكن الأمر لا يقتصر على ذلك ففي تواجد دار الصبايا على مقربة من المطبخ ، محاولة لتشجيع التعارف أي أنها تسهل رؤية الفتيات بالنسبة إلى الشبان سواء لأجل التعرف عليهن أو لرؤية خطيباتهم ، إذ لم يمكن اللقاء بين الخطيب وخطيبته إلا في بعض المناسبات النادرة .

والمطبخ يكون عادة على مقربة من المدخل ، وعند قدوم أحد الشبان ، فبمجرد انتهاء السقيفة ينظر إلى جهة المطبخ سائلا « وينكم يا أمالي الحوش » " أينكم يا أصحاب الدار " واتجاه البصر نحو المطبخ يمكن من رؤية دار الفتيات اللاتي يسرن من الباب لرؤية القادم ، إنها من الفرص النادرة للتعرف ، لرؤية الفتيات والعكس صحيح أيضا .

وإذ ما عدنا إلى السقيفة في المدخل ، نرى مربط البغل ، الحصان ، الجمل طول السقيفة لا يقل عن أربعة أمتار وقد يبلغ العشرة أمتار أو أكثر بالسقيفة دار أي غار ، مخصص لحفظ أدوات العمل الفلاحية ( المحراث ، النورج ، الفأس ) حيث تحفص هذه الوسائل من الحرارة الشمس ، ومن الندى المتساقط ليلا خاصة في فصلي الخريف والربيع ومن الأمطار ( في الشتاء )

وعلى مقربة من هذا المدخل نجد مربط الكلب ، إنه من بين الحيوانات الضرورية ، فإذا كان البغل ، الجمل ، الحمار وسائل نقل وعمل فإن الكلب هو الحارس ، الموقظ ، الحامي . وإن كانت الحيوانات الأخرى شجعت على إقامة الطوابي ، وغرسها فإن الكلب شجع على امتلاك الحيوانات الأخرى وخاصة الماعز والضأن ، فجبال مطماطة ملجأ آمن للذئب ، وقصة صراعه مع الأهالي متواصلة .

لكن الحوش لا يقتصر على ما تم ذكره ، فكل حوش في مطماطة " يحوي دار الخزين " هي دار تعلق الدار الكبيرة ، فيها نجد مخزون العائلة من الحبوب ( القمح الشعير ..... ) من الفواكه الجافة ( الفول ، العدس .... ) من الزيت ، من السمن ، من التين الجاف ( = الشريح والغربوز ) وبها أيضا " الزريعة " أي الحبوب المعدة للبذر عند تهطل الأمطار في الفصل الخريف أو في الشتاء ، ولا بد من الإشارة إلى أن كميات الحبوب المعد للبذر وأيضا كميات الفواكه لا تستهلك حتى وإن امتد الجفاف على مدى سنوات ثلاث .

وحدها العجوز ، المرأة الأكبر سنا ، سيدة البيت هي التي تمتلك مفتاح دار الخزين وهي الوحيدة التي بإمكانها التصرف في المخزون ، مراعية حجم العائلة من ناحية وكميات المخزون من ناحية أخرى .

ضمن هذا السياق نود الإشارة إلى أن وجود دار الخزين هو بديل عن " القصر " وتحديد عن " الغرفة " المخصصة للخزن ، فإذا كان أهالي ورغمة ( = ولايتي مدين وتطاوين ) بما في ذلك سكان القرى الجبلية مثل بني خدّاش وغمراسن .... إستعملوا القصر كخضاء من بين اختصاصاته الخزن حتى يقلل الحصول بعيدا عن أيادي النسوة وحتى تتم عملية السلفة والإعارة بعيدا عن أعينهن . (21) فإن نسوة مطماطة هن اللاتي يشرفن على المخزون وبالتالي على العمليات المذكورة آنفا بعيدا هذه المرة عن أعين الرجال فهي تتم في مجال المرأة ، المرأة هي كالدار الوسطى ، موضع أسرار الحوش ، أو بالأحرى العائلة ، بيدها مفتاح المؤونة ولعل هذه المسؤولية التي تحملتها المرأة هي التي ساعدتها على تحمل المسؤولية تاليا فأهالي مطماطة من أوائل الذين هاجروا ، حيث هاجر الرجال إلى المدن الكبرى كتونس العاصمة وإلى خارج الحدود إلى ليبيا والجزائر وإلى ما وراء البحار أي إلى أوروبا ...

لقد مارس أهل مطماطة " الهجرة المختصة " (22) ، فهم ولا إستثناء تقريبا يصنعون الخبز بل إنهم يتقنون ذلك ، إلى درجة أنه « في كل قرن لصناعة الخبز في تونس يجب أن يوجد خباز من « مطماطة » لأن شهرتهم في المجال معروفة ويكفي أن يقول من مطماطة حتى يقبل للعمل فورا » (23)

إلا أن هذه الهجرة لم تثمر انقطاعا عن نعط الحياة القروي ، فبمجرد هطول الأمطار يعود المهاجرون أو بعض منهم للقيام بالأعمال الفلاحية ، فظاهرة الهجرة عند أهالي مطماطة تميزت « بإيجاد مجموعة من الأبنية الاجتماعية والإقتصادية التي تهدف إلى الأخذ بيد الفرد من طرف المجموعة . الأخذ بيد الفرد من طرف المجموعة يذكّر بوظائف ومبادئ ونماذج الحياة الجماعية في الموطن الأصلي » (24)

وعموما جسد الحوش مرحلة اقتصاد الغاية ، وهي مرحلة العائلة الممتدة اجتماعيا : فهو فضاء لحماية الإنسان تماما كما هو بالنسبة للحيوان ، وبينه وبين الإنسان وجدت علاقة عاطفية غفي رد لها عن سؤال أحد الزوار لمطاطة تجيب سيدة من مطاطة متحدثة عن " الفيران " أي الديار المحفورة بأنها « أكثر حنوا علينا من الإسمت ، فهي باردة في الصيف ، دافئة في عز الشتاء » (25) لم ترجع السيدة المعطيات الطبيعية مثل الحرارة والبرودة إلى علاقتها بسمك القشرة الأرضية ، ومدى تكيف هذه الأخيرة مع المعطيات المناخية ، بل تحدثت عن علاقة حميمية ، تجعل الأرض تعطف على الإنسان ، إنها في الواقع تبادل شعورا كثيرا ما يحسه الإنسان الريفى نحو أرضه بدءا من الحقل وانتهاء بالمنزل بالبيت . « الأرض هي القيم في حياة الفلاح القروي . إنها جنوره ومورده ومقره الأخير وانبعائه هو غني بها وفقير بدونها ... وعندما يفقدها أو يبتعد عنها لسبب من الأسباب ، يشعر أنه منفي ومعلق في الهواء بلا جنور » (26) وهذه العلاقة دعمت دفء العشرة في المهجر ، وكانت زادا معنويا - إلى جانبها - بالنسبة إلى المهاجر ، لذلك كانت العودة مبدأ وخدمة الأرض أيضا مبدأ .

لكن مع ذلك لا بد من التذكير بأن الحوش في وجه من وجوهه استجابة لظروف طبيعية قاسية ، لطبيعة تدعو إلى الخزن لعدم استقرارها ، خيار الخزن يتطلب يد عاملة وافرة تمكن من إستغلال المساحات المتوفرة ويبنو مقابل . وهو يسمح لنا بإبراز دور الحوش كفضاء للخزن في تدعيم وجود العائلة الممتدة دور الحوش أو " غيراته " تحيط بفناء الدار أي بالرحبة ، فهي تذكرنا بشكلها الدائري " بالميعاد " أي تلك الجلسة التي يتدارس فيها كبار القبيلة ( والشكل الدائري اليوم ، في النظريات التربوية ) ، وهي مناسبة أو فضاء للتشاور ، وتبادل الآراء في القضايا التي تهتمهم ، علما وأن " الميعاد " كسمية أطلقتها أهالي ورغمة على المجلس الذي يضم كبار العرش . والشكل الدائري اليوم في النظريات التربوية من أنجع وأنجع الطرق في التواصل ، حيث يسهل عملية التواصل ويساهم في تكريس الطريقة النشيطة التي تجعل من الفصل فضاء لتبادل الأفكار والآراء ، لا فضاء للتلقين ، عندئذ يمكن أن ننعت نور الحوش بحلقة مترابطة ، متماسكة ، تشابكت أيادي أفرادها ، إنها ضرورة التكاتف والتلاحم في مجتمع قرابي يولي العلاقات الأولية مكانة مهمة في مجتمع مبني على الكفاف . أما دار الخزائن التي حفرت فوق بقية الدور ، في مكان عال ، فإنها لا تخلو بدورها من رموز . فهي في طويتها كالمصلحة العامة ، المصلحة المشتركة التي تلو مصالح الأفراد ، ثم هي لا تخلو من قدسية ولا غرابة أن اعتلت أضرحة الأولياء قمم الجبال ، فمن أراد التبرك عليه بالصعود ، والصعود عملية لا تخلو من أتعاب وتضحيات . وأهم التضحيات التي يقوم بها أهالي مطاطة لأجل توفير مخزون كاف من الحبوب وغيرها هو استغلال ما توفر من ظروف طبيعية ومناخية لأجل استهلاكها عند الحاجة .

لقد جعل أهالي مطاطة من الفلاحة عملا مقدسا ، يستدعي تضحيات مختلفة ، يستدعي العودة من المهجر في موسم الزيتون ، في موسم الحصاد ... وفي غيرها من المواسم الفلاحية ، إنه نوع من الواجب يشعرون به وهم في تونس أو في غيرها من المدن وأحيانا خارج الحدود في ليبيا مثلا .

هذا الشعور بالواجب لا يضاهيه إلا شعور آخر هو واجب العودة لحضور أفراح الأقارب فيها ، تلك العودة الإجبارية نراها كذلك في الأعياد الدينية وخاصة في عيد الإضحى ، إن العودة إلى العمل الفلاحي ، إلى توفير المخزون مبدأ مقدس تماما كالمناسبات الدينية والمناسبات الإجتماعية التي أملت بها علاقات القرابة .

حينئذ يمكن القول إن الحوش ومقتضياته مثل الغابة ، العائلة الممتدة استوعب الهجرة ، أي استوعب تغييرا حصل من خارجه امتد على فترة بدأت مع الحماية الفرنسية وتحديدا منذ مطلع القرن العشرين ، إلا أننا اليوم ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين بدأنا نلمح بوادر تحول وتغير . لقد بدأت « مطماطة رغما عنها تتغير ... وبدأ البعض الآخر يبني بيوتا اسمنتية فوق الأرض وبدأ طوفان التغيير الذي أصاب كل شيء في العالم يصيبهم هم أيضا » (27)

فكما لا شك فيه أن مطماطة عرفت تبديلا وتغيرا على عديد الأصعدة كغيرها من قرى تونس والعالم ، فالمدرسة ووسائل النقل ووسائل الإعلام والهجرة كلها عوامل تبدل أثرت في مختلف جوانب حياة أهالي مطماطة ولعل أهم جانب خضع للتأثير كان الحوش الذي صار معلما سياحيا ، يؤمه السياح من كل بلد ، بل من داخل تونس حبا في الإطلاع عليه ورغبة في كشف أسرارها أو أسرار حفر أوجدها الإنسان في أعالي الجبال . وكُنَّ الجبال يعلوها ذلك والذي يبلغ أحيانا 700 م (28) أقنعت الإنسان بالتواضع كما أقنعت بضرورة البحث في أعماقها عما قد توفره له في ظاهرها . لذلك وجد في داخلها البقاء عند البرودة ، والبرودة عند الحرارة ، إلخ ... إن العلو بالنسبة لأهالي مطماطة لا يشجع على الصعود فحسب ، بل يشجع كذلك على سبر الأغوار والبحث في الأسرار .

إن جبال مطماطة لم تكن مصدر ثروات منجمية ، كالأذهب أو الفسفاط أو غيرها بل إنها جسدت مصدر ثراء رمزي ، إنها تحفظ بينها ذاتا حضارية عرفت مركزها اليوم تحولا مهما يستدعي الوقوف عنده .

## 5 - الحوش : حلقة الوصل بين السياحة الصحراوية والسياحة الساحلية :

ما سر تلك العبارات التي أشرنا في البداية إلى وجودها منحوتة على الجبال ، عند المدخل الشمالي للقرية ؟ خاصة وأن العبارات بلغات ثلاث ؟

في إعتقادنا تجسد العبارات المفتاح لفهم التحول الذي عرفت مطماطة والذي يجعلنا نجزم فعلا بأنها تعيش الحدث السياحي . أو حسب عبارة الأستاذ محمد العزيز نجاحي تعيش الحدث الصناعي السياحي (29) وهنا يبدو من البديهي التساؤل حول السر أو بالأحرى العوامل التي جعلت مطماطة تعيش هذا الحدث أولا ثم النتائج المترتبة عليه ثانيا ؟

إن الإقبال السياحي على منطقة معينة مؤثر على توفر السلع السياحية بتلك المنطقة ، والمعطى أن هذه السلع تنقسم إلى أنواع ثلاثة (30)

– السلع العرة : أو المتاحة لجميع الناس مثل الهواء والمناخ والمناطق الطبيعية ومناطق التزهة ويطلق على هذه السلع إسم رأس المال السياحي « الكامن » وهذه يمكن اعتبارها سلعا من الناحية السياحية فقط أما من الناحية الإقتصادية البحث فهي قيم استعمالية وليست قيما

تبادلية .

– السلع المنتجة : أي التي نشأت بفعل الإنسان مثل الآثار والمجموعات الفنية والحفريات واليابنابيع المعدنية لأن هذه السلع تنتج من النشاط الإقتصادي الذي يتضمن الإنفاق والصرف .

– السلع والخدمات الثانوية : تألف ما يسمى بالتجهيز السياحي مثل وسائل المواصلات والطرق والمنشآت السياحية مثل الفنادق والملاهي وغيرها . مجمل هذه السلع تتوفر بمطماطة ، فالهواء نقي باعتبارها بعيدة عن كل ما من شأنه أن يؤثر سلبا على الهواء مثل الأنشطة الصناعية وغيرها . وهي متوسط بين الصحراء برمالها الذهبية والبحر بأمواجه وشاطئه . فالمسافة التي تفصل مطماطة عن الأولى تكاد هي نفسها التي تفصلها عن الثاني وهي حوالي 45 كلم : فضلا عن أن السلع المنتجة تكاد تكون هي ذاتها السلع والخدمات الثانوية ، فآثار مطماطة يتصدرها الحوش . والحوش تحولّ من منزل إلى نزل أي إلى فندق . ففدا معلما سياحيا مميّزا ، بالرغم من وجود بعض النزل المشيدة بالطريقة الحديثة ( البناء على الطراز الحديث ) ، مما أحدث نوعا من التشاؤم الذي سنعود إلى الحديث عنه لاحقا .

كل حوش في مطماطة زاره السياح من جنسيات مختلفة ، أطلّوا على سكانه حتى أن أهالي مطماطة بما فيهم الصغار تعوبوا رؤية السياح » لقد تعودوا على ذلك من كثرة السياح الذين يمرّون بهم ، تعوبوا على العيون المحدقة وتلويحات الإستغراب وأضواء الفلاشات وعشرات الألسنة التي ترطن متسائلة عن طريقتهم في الحياة » (31) تبدو الطريقة في الحياة – التي أطنبنا الحديث عنها – هي باعث الإطلاع المحوري أو هي بالأحرى السلعة السياحية التي تجد رواجاً أكثر من غيرها .

وتشجيعا لهذه السياحة أنشئت عدة نزل بالقرية ، بعضها محفور والبعض الآخر – للأسف مبني على الطرز الحديثة وهو ما يشعّر الزائر بتشوّش – فضلا على أن التماهي في تشبيهه مثل هذه النزل قد يكون من عوامل النفور عن الإقامة بمطماطة والإتجاه إلى مناطق أخرى غير بعيدة عنها – بحكم توفر وسائل النقل المخصصة للسياح – مثل جربة ، مما يفقد السياحة في هذه الحالة أحد أبرز خصائصها وهو توفير شغل لأهالي القرية بل ولغيرهم وخاصة من الفتيات اللاتي قمن من مختلف جهات البلاد .

إن حفر نزل مجهزة بشكل حديث عامل مشجع للسائح على الإقامة وقضاء بعض الليالي بمطماطة ، النزل على طريقة الحوش يسمح للزائر بالإطلاع على أدق خصائص هذا الفضاء المعماري ، لا فقط مشاهدته وأخذ صور له . وإلى جانب هذه الوحدات السياحية توجد نقابة التوجيه السياحي ولها مجموعة من الجمال تشتغل لنقل السياح ولكن لا توجد بمطماطة وكالة للأسفار ، فالإبل في مطماطة ملك لعائلات لا لوكالات أسفار بخلاف دوز مثلا (32)

ويرغم كل ذلك ظلت منزلة الحوش مميّزة ، فالسياح يفضلون الإطلاع على الحوش وعلى طريقة تنظيمه داخليا وطريقة الحياة من حوله . وبالمقابل شجعت السياحة على المحافظة على الحوش ، حيث تولي النسوة عناية لتنظيم الحوش وتنظيفه والمحافظة عليه ، وهذه العملية في حد ذاتها تساهم في صيانة ذلك المعطى الحضاري ، أو الأثري إن جاز القول .



إن حفر الحوش عملية لم نعد نشاهدها إلا لماما ، يكفي أن نذكر بارتفاع سعر المتر المحفور من ستة دنانير 1985 إلى خمسة وعشرين دينارا سنة 1996 .  
ولا غرابة أيضا منذ مطلع التسعينات لم نشاهد منزلا جديدا يحفر ، بل عملية الحفر الوحيدة شملت نزلا . بلغة مغايرة النزول صار - ويجب أن يكون كذلك - طريقة للحفاظ على الحوش ، للحفاظ على مهارات وكفاءات . فالمطماطي لا يتقن فقط صناعة الخبز - مثلما تمت الإشارة إلى ذلك - بل يتقن أيضا التعامل مع المول ، الرفش الذي كان مطواعة ، بل هو إزميل النحات الذي جعل من الحوش لوحة فريدة ، تشد أنظار الزائر ، وكلما أمعن النظر فيها إلا وازداد اقتربا منها ...

إن النزول اليوم يجب أن يكون وريث المنظر الأول ، أي أنه من المفروض أن يكون المشهد الذي يخترن في طياته الأبعاد الجمالية للحوش . ومهما يكن من أمر فإن السياحة ساهمت في خلق مواطن شغل مباشر ( عدد لا يستهان به من العاملين في النزول سواء بصفة دائمة أو بصفة موسمية ) . كما أفرزت " مواطن شغل " لا تخلو من طرافة ، مثل المتاجرة بالحيوانات ، فعمل مشهد أولئك الصبية المصحوين ببعض الحيوانات مثل " الولل " و " الضب " و " الباز " وهم يستحثون السياح على أخذ صور بجانبها ، من الأوجه التي تعطي السياحة في مطماطة بعدا جماليا مهما شرط أحكام عملية تنظيم تصرفات هؤلاء الصبية لأن في ذلك خطر حتى على الحيوانات أنفسها - سنتعرض إليه لاحقا -

وفي المقابل مكنت السياحة من المحافظة على حيوان الجمل ، بعد أن صار مهددا بالإنقراض لأسباب مختلفة لعل أبرزها قلة رعاة الإبل باعتبار أن الشكل السائد في الحضارة العربية لتربية هذا الحيوان هو تركه يتنقل على مسافات طويلة في المناطق الصحراوية . لكن العامل الأهم في اعتقادنا تلك النظرة التجارية التي تسود اليوم والتي ترى أن حيوانات الإبل ليست كغيرها من الحيوانات الحقلية الأخرى التي لها المردود السريع سواء كان ذلك حليباً أو لحماً » (33) . لكن السياحة في مطماطة ساهمت في الحفاظ على الجمل كوسيلة للعمل والرزق . ولذلك ارتفعت أسعار الجمل حيث يتراوح سعر الجمل الواحد بين 800 و 1000 د . وهو ما يشجع نوعا ما على تربيته والمحافظة عليه .

إن للسياحة تأثيرا على الدخل الوطني من ناحية العملة التي يجلبها السياح الوافدون ولكنها تساهم في التعريف بالقرية ، بخصوصيتها وقد تكون عاملا للحد من الهجرة . ولكن لها من الآثار ما يثير الإنتباه ، يكفي أن نذكر أن الغاية تشكو الشيخوخة ، وإذا ما أضفنا إلى ذلك تقلبات المناخ فإن ذلك سيهدد فعلا مصير أحد ملازمي الحوش ، لأن الشباب لم يعودوا يولون للأشجار عناية تذكر ، كما أن التوجه إلى إثراء السلع السياحية ببضائع جديدة شملت خصوصا طيور الساف و " البوجردة " والعقاب وهي كواسر إستوطنت جبال مطماطة من قديم الزمان وكانت جارا لأهالي مطماطة وأيضا جزءا من معطى طبيعي ثري إلى جانب حيوانات أخرى كالورل والضب ، وهي في مجملها صارت مهددة بالإنقراض نتيجة الصيد العشوائي الذي صار يمارس هذا فضلا عن ندرة الحيوانات الفلاحية التي لم يصمد منها إلا الجمل الذي أصبح

عضوا في منظومة التوجه السياحي للقرية .

إن الحوش إستوعب الهجرة محافظا على عناصر ساهمت في تكوينه وجعله فضاءا مثل الغابة والحيوانات التي يستعين بها الإنسان في خدمتها ولم تكن الهجرة عائقا لخدمة هذه الأرض . ولكنه إستوعب السياحة ، متخليا عن بعض ثوابته ، لعل تيار التبادل يكون أقوى عند قدوم عوامله إلى عمق الريف خاصة إذا كانت هذه العوامل مغرية مثل السياحة .

#### الهوامش:

- 1 - نستعمل التغير الحضاري بالمعنى الذي إستعمله الدكتور محي الدين صابر في كتابه « التغير الحضاري وتنمية المجتمع » حيث يرى أنه « حقيقة منطقية وحقيقة تاريخية » ص 72 ، وهذه الحقيقة ترتبط بميزة من مميزات الحضارة وهي « إشباع الحاجات الأساسية والفرعية لأعضاء المجتمع ، ذلك لأن العادات والسلوك والوسائل المادية التي تقدمها الحضارة يتوقف بقاؤها على مقدرتها على الإستمرار في إشباع تلك الحاجات ، وهي حين لا تفعل يكون التغير ضرورة إجتماعية » ص 72 .
- 2 - المقدم ( مهي سهيل ) : المجتمع القروي بين التقليد والتحديث ، دراسة نظرية وميدانية - بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1975 ص 7 .
- 3 - المرجع نفسه ص 7 .
- 4 - نجاحي ( محمد العزيز ) : البحوث والرسائل الجامعية قواعد ومناهج وتقنيات - تونس : دار إسهامات في أدبيات المؤسسة 1993 ص 40 .
- 5 - المرجع نفسه ص 77 .
- 6 - الطاهر ( عبد الجليل ) : مسيرة المجتمع : بحث في نظرية التقدم الإجتماعي - بيروت ، صيدا : دار المكتبة المعاصرة للطباعة والنشر 1996 ص 369 .  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>
- 7 - غلاب ( محمد السيد ) : البيئة والمجتمع : الإسكندرية ، دار الطالب 1955 ص 29 .
- 8 - في دراسة له حول " ظاهرة تربية الماشية الذكور وصورة المرأة بالشمال الشرقي التونسي ( دراسات عربية جانفي 1994 ص 60 ، 74 ) يذهب الأستاذ محمود النوادي إلى أن تلك المناطق تغلب عليها التلال والهضاب والجبال وبالتالي فإن المساحات بها صغيرة لا تسمح بتعاطي زراعة الحبوب فلذلك إنتشرت بها غراسة الأشجار .
- 9 - B'CHIR MONGI ET JEMAL HEDI : les migrations traditionnelles chez les << JEBALLAS >> de MATMATA étude socio - démographique in revue tunisienne de sciences sociales : Cérès n 48/49 : 1977 pp 23 - 79 ( p : 44 )
- 10 - SETHOM HAFEDH - KASSAB Ahmed : les régions géographiques de la Tunisie : Tunis : pub, de l'université de Tunis 1988 p 149 ,
- 11 - قنديل ( محمد المنسي ) : تونس من المسرح إلى باطن الأرض في مطعملة مجلة العربي ( مارس - آذار ) 1996 ص 143
- 12 - قنديل ( محمد المنسي ) : المرجع السابق ص 142
- 13 - المرجع نفسه ص 142
- 14 - الطاهر ( عبد الجليل ) : مرجع سابق ص 280
- 15 - بركات ( حليم ) المجتمع العربي المعاصر ص 77

Louis ( P , A ) : Nomades d'hier et d'aujourd'hui p : 30 \_ 17

18 - بركات ( حليم ) : مرجع سابق ص 76 .

MENOUILLARD (H):Moeurs du sud tunisien : le Berger in Revue Tunisienne \_ 19

XI 1904 pp 213 - 214

20 - قنديل ( محمد المنسي ) : المرجع السابق ص 139 .

21 - بالراشد ( محمد ) " القصر شاهد على الإنتاج " ، مجلة الإتحاف عدد 66 ، فيفري 1996 ، ص 12 - 14

B'CHIR ( Mongi ) - JEMAL (Hedi) : I B I D . P: 45 \_ 22

23 - قنديل ( محمد المنسي ) : المرجع السابق ص 140 .

B'CHIR ( Mongi ) - JEMAL (Hedi) : I B I D . P: 41 \_ 24

25 - قنديل ( محمد المنسي ) : المرجع السابق ص 140 .

26 - بركات ( حليم ) : مرجع سابق ص 83 .

27 - قنديل ( محمد المنسي ) : المرجع السابق ص 143

SETHOM (Hafedh) - KASSAB (Ahmed) : I B I D . p : 150 \_ 28

29 - التجاحي ( محمد العزيز ) مدينة توز نموذج التداخل بين البداة والحضارة - تونس ، دار سحر للنشر 1995

ص 10

30 - بو علي ( ياسين ) : نحن والفير في السياسة والاقتصاد - اللائقية - دار الحوار للنشر والتوزيع .

اللائقية : دار الحوار للنشر والتوزيع 1990 ، ص 128

31 - قنديل ( محمد المنسي ) : المرجع السابق ص 140 -

32 - يشير الأستاذ العزيز نجاحي ، إلى « أنه في توز توجد وكالات الأسفار التي تملك قوافل الإبل والسيارات مثل

أسفار عبد المولى ، توز للأسفار والمرافق للأسفار . » توز ص 192

33 - شريفة ( عاشور مسعود ) : أعمية حيوان الإبل لسكان الوطن العربي - الوحدة عدد 84 - 1991 - الوحدة عدد

1991 / 84 ص 198 - 199 .

# قيم الحداثة في الفكر العربي الإسلامي

لمجد الجليل الميساوي

بقلم : حسن غزيل

## 1 - التمهيد :

كثيرة هي المطارحات الفكرية التي تناولت الحداثة بالدراسة والتحليل حتى عدّ الإشتغال بها أحد أبرز السمات الفكرية المميّزة لثقافة النصف الثاني من القرن العشرين بل قل إنّ جميع المجتمعات مسكونة بهاجس الحداثة ، وخاصة منها الدّول النّامية أو الفارقة في مشاكل التخلّف والركود الفكري والاقتصادي والحضاري « يهولها ما تراه عند الآخرين فتخشاه خيفة من تسلّطه وهيمنته » ( 1 ) ، فتسعى جاهدة إلى التحديث لشغل حيّز العصر ومناقسة « الآخر » ومقاسمته السيادة والإبداع في هذا الكون .

لكن ألم يعرف العرب المسلمون الحداثة ؟ هل للحداثة مرجعيات في الفكر والثقافة العربيتين مكّنت العرب المسلمين من حوز قصب السبق في قيادة العالم عدّة قرون ، ومن بناء حضارة إسلامية شامخة الصّرح ؟ أم أنّ الكلام في قضايا الحداثة مستبعد قبل عصر النهضة في أوروبا ؟ بعبارة أخرى هل الحداثة طفرة حضارية أو انقلاب مفاجئ سلت في القرن السابع عشر أم هي أمر مثل كلّ الظواهر الحضارية والتحوّلات الفكرية لها إرغاصات ومقدمات ترتبط بجذور ضاربة في أعماق التّاريخ ؟ ذلك هو أحد الأسئلة الجوهرية التي يحاول الكاتب : عبد الجليل الميساوي ، الإجابة عنها ضمن كتابه : « قيم الحداثة في الفكر العربي الإسلامي من ظهور الإسلام إلى عهد ابن خلدون »

## 2 - مدخل إلى دراسة الكتاب :

صدر كتاب « قيم الحداثة ... » في شهر ماي 1996 عن دار نقوش عربيّة ضمن سلسلة مراجعات ، وهو كتاب من الحجم المتوسط يقع في 197 صفحة ويشتمل على :  
- مقدّمة في 6 صفحات  
- أربعة أبواب أرفق كلّ منها بمدخل

- \* الباب ( 1 ) : « الحداثة والتحديث والجهاز المفاهيمي » في 28 صفحة
- \* الباب ( 2 ) : « قيم الحداثة في الفكر العربي الإسلامي القديم » وتمتد على 23 صفحة
- \* الباب ( 3 ) : « قيم الحداثة في الفكر العربي الإسلامي القديم بعد الفترة التأسيسية »

ويضم 39 صفحة .

\* الباب ( 4 ) : « التنكر لقيم الحداثة » ، ويقع في 20 صفحة

- قسم خاص « بالمصطلحات » ويشمل 63 صفحة مرتّب ترتيباً هيجانياً .

هذا إضافة إلى جانب فهرس لمختلف المصادر والمراجع المعتمدة في تأليف الكتاب .

### 3 - دراسة الكتاب :

#### - مقدمة الكتاب :

أبرز فيها أنّ الاهتمام بالحداثة يعدّ من أهم السمات الفكرية في العصر الحديث ، كيف لا وجميع الشعوب تتطلّع إلى الشعوب « لامتلاك ما تيسّر من مقومات هذه الحداثة واكتساب ما يتاح لها من شروطها وتسعى جاهدة لتعرّف السبيل الموصلة إلى تحقيقها » (2) ، كما بيّن من خلالها أسباب اقدمه على استكشاف مظاهر الحداثة في الفكر العربي الإسلامي من ظهور الإسلام إلى عصر ابن خلدون ، ويمكن إختزالها في أمرين :

أولهما : ما لاحظته من شبه اجماع بين الباحثين في قضايا الحداثة على أنّه لا يمكن الكلام عنها قبل عصر النهضة في أوروبا على أساس الافتراض القائل بأنّ الحداثة وبداية القرن السابع عشر حتّى بات الحديث عن الحداثة في الفكر العربي الإسلامي أمراً باهتاً .

ثانيهما : ما قرأه للدكتور محمد أركون من قوله « أنّ الإسلام في لحظة إنبثاقه التاريخية فقد كان لحظة حداثّة بدون شك أي لحظة تغيير وتحريك التاريخ » فالى أنّي مدى يمكن الحديث عن قيم حداثيّة في الفكر العربي الإسلامي ؟ . ولم تفته الإشارة في هذه المقدمة إلى صعوبة رصد المنزع التحديثي في الفكر العربي الإسلامي « لأنّ الفترة الزمنية عشترا مع ما يصاحب هذا الإمتداد الزماني من انفتاح مكانيّ تعدّدت فيه منارات الإشعاع الفكري » (3) ، ومراكز الدفّع الحضاري وتباينت الأوضاع الحضارية والثقافية لدى شعوبه فضلاً عن إختلافها باختلاف الأحقاب والعصور التي عرفت فيها الأمة العربية النهضة والسقوط .

#### - أبواب الكتاب :

### 2 - 1 - الباب الأوّل : الحداثة والتحديث والجهاز المفاهيمي :

ضمن هذا القسم الأوّل حاول الكاتب أن يرصد مختلف الفروق بين مصطلحات تكاد تتماهى أو تتقارب دلالة ومصطلح الحداثة كاليقظة ، التطوّر ، التقدّم ، المدنيّة ، التعصير ، النهضة ... وانتهى إلى أنّ :

\* اليقظة : هي لحظة ميلاد الفكر الإصلاحية أو المنزع التحديثي ، فيها إستفاقت الذات العربية من غفوتها ، فراحات تبحث عن أدوات لمعالجة تقهقرها مقارنة بالآخر المتقدم ، وبذلك « فاليقظة هي إدراك أولي تكتفي بوعي النخبة (4)

\* النهضة : هي مرحلة من مراحل الحداثة « وصحوة تفصيلية شاملة لجوانب عديدة ومختلفة من الحياة » (5) ، وبناءً على ذلك فالنهضة ليست هي الحداثة ، إنّ النهضة بداية والحداثة مسيرة

طويلة لا تتوقف والنهضة مرحلة زمنية والحداثة قوة دافعة إلى التغيير لا ترتبط بزمان ، أما العلاقة بين اليقظة والنهضة فإنَّ اليقظة وعي والنهضة حركة واستجابة لهذا الوعي . (6)

\* الحضارة انجاز ومسيرة تاريخية كاملة تشمل مكاسب الماضي والحاضر بينما « الحداثة هي القدرة على التأقلم مع معطيات الحاضر والتعامل معها بموضوعية وهي تطَّلِع واستشراف للمستقبل » (7) فهي بمثابة رأس القاطرة التي تجرُّ رتل الحضارة وتوجهه وتستحثُّه .  
\* الإصلاح : أداة من أدوات التحديث وطور من أطوار نموِّ الحداثة أو مرحلة ابتدائية من مراحل مسيرتها « غايتها تنوير العقل وإخصابه بما يؤهله لمعالجة أوضاع واقعه وتوفير الحلول لمشاكله » (8) .

\* المعاصرة : هي معاشية الحاضر والانتماء إلى العصر وهي مرتبطة بالزمان والمكان بينما الحداثة ليست زمانية لا تقبل التجزئة بل مسيرة تاريخية .

\* التحديث : هو جملة المعطيات المادية والتنظيمية والثقافية والتربوية إذا توفَّرت وفق نسق منهجي مخطَّط ساعدت على توفير الحداثة في الذهنية الجماعية التي تعابشها .

\* الحداثة : سعي دائب لتجاوز المائل وتطلُّع نحو الأفضل وتسائل حول الممكن ونقد ومراجعة متواصلان ، فهي تفتح النوافذ أمام العقل الإنساني لتخطي عبودية التقليد والحيرة ولتجاوز المرجعية والنموجية ، « إنها الوعي المناقض لصفات الأخلاق ، اليقين ، التسليم ، النقل ، التقليد ، القوالب الجاهزة الثابتة ، إنَّ الحداثة تموت حين تفقد تلهب السؤال ، حين تكفُّ عن مساهمة نفسها ، حين تدخل مطقة الأمان وتفارق ضفافها التي لا تعرف اليقين وحدودها التي لا تفارق النسبي ... » (9) - فالحداثة - بخصائصها هذه - ترمي إلى البحث عن الذات وإلى كيفية المؤلفة بينها وبين الهوية أو بينها وبين التراث .

2 - 2 - الباب الثاني : قيم الحداثة والمنزع التحديثي في الفكر العربي الإسلامي القديم :  
كشف الكاتب . من خلال هذا الفصل - عن ملامح المنزع التحديثي في الفترة التأسيسية الأولى من خلال نصوص القرآن والسنة النبوية ، ثم وضَّح ما نشأ بين أحضان الإسلام من قيم الحداثة في الفترة التأسيسية الثانية فترة الخلفاء الراشدين « مع تركيز خاص على إبراز الرؤى التحديثية في المجالات التنظيمية ذات الصبغة السياسية والإدارية » (10) واستخلص أنَّ النَّصَّ التَّأسيسيَّ حوى مسائل تحديثية منها :

- دعوته الصريحة إلى القطع مع التقليد ومع التفكير التراثي لما في ذلك من تثبيط للمكاث الإنسان ومواهبه وقدراته .

- نظرة الخطاب التشريعي إلى الإنسان واعتباره عنصرا فاعلا وعاملا أساسيا يتصدَّر جملة العوامل الفاعلة في تغيير الواقع » (11)

- الانفتاح على الآخر ونبذ الانغلاق وتأكيد التواصل بين المسلمين وغير المسلمين واعتبار ما يجمعهم من الوحدة الإنسانية » (12) .

- توسيع آفاق العلم والحث على طلبه .  
 - أفضى العلاقة بين الحاكم والمحكوم واحتكامها إلى سيادة القانون  
 - احترام الذات البشرية وصون كرامتها  
 - أن الدولة تجربة إنسانية مفتوحة قائمة على الديمقراطية والمساواة وموكلة إلى الناس حتى  
 يتخبروا الطرق والوسائل التي تستجيب وأوضاعهم وتساعدهم على تحقيق مصلحتهم ودفع  
 الضرر والفساد الاجتماعي» (13)  
 تلك هي عيّنات تؤكد أن ظهور الإسلام مثل لحظة حداثة وتحريك العملية التاريخ \* على حدّ عبارة  
 محمد أركون .

2 - 3 : الباب الثالث : قيم الحداثة في الفكر العربي بعد الفترة التأسيسية :  
 خصّصه للحديث عمّا جسّمته فترة الانتشار والانفتاح الثقافي والازدهار الحضاري والتفاعل  
 الإيجابي مع الآخر - مع المحافظة على الخصوصيات الذاتية الضامنة لمغايرة الآخر ... (14) من  
 منزع تحديثي في المجالات : الفكرية ( كالنقد والاحتفال بالعقل : التيار الاعتزالي نموذجاً )  
 والسياسية ( الدعوة إلى التعايش السلمي والاعتراف بالغير ) والفقهية التشريعية ( المزاوجة بين  
 العقل والنقل ونبذ التعصّب والمغالاة ) والتربوية ( التربية وطرق التدريس ) ... برزت في فكر  
 بعض أعلام أفريقية والمغرب الإسلامية كالإمام سحنون ومحمد بن سحنون وأبو عثمان سعيد بن  
 الحداد وأبو الحسن القابسي وابن الجزار القيرواني وابن العربي وابن خلدون ...

2 - 3 الباب الرابع : التثكّر لقيم الحداثة :  
 ركّز فيه الكاتب على ملامح التثكّر لقيم الحداثة في الحضارة العربية الإسلامية خلال فترة  
 الركود والانحطاط إذ تميّزت تلك الفترة بالتمسك بالقديم ورفض كلّ جديد مستحدثاً كان أو  
 مقتبساً وفكراً كان أو تشريعاً أو تنظيمات سياسية أو إدارية ... ما لم تستمدّ مشروعيتها من  
 المنقول \* (15) ، فاعقب ذلك جمود فكري وتعطلّ حضاري سيطر على مسيرة الحضارة العربية  
 الإسلامية بين القرنين السابع والحادي عشر ميلادي مقارنة بما شهدته الحضارة اليابانية في  
 نفس الفترة ، لكنّ ذلك لا ينفي وجود بعض الرؤى التحديثية آنذاك كإبن رشد والطوفي والشاطبي  
 وابن القيم وابن تيمية وابن خلدون لكنها تبقى \* محاولات فردية ووعيا نخبويّاً \* (16)

3 - معجم المصطلحات :  
 قسم هامّ (17) من الأثر يتوزّع على 63 صفحة خصّصه الكاتب لشرح بعض المصطلحات  
 الواردة بالكتاب والتي تقتضي الوقوف عند دلالاتها الإصطلاحية استعانة بمختلف المعاجم سواء  
 كانت لغوية ، فقهية ، فلسفية وقانونية ...  
 \* الخاتمة :

والحقيقة البادئة أن كتاب \* قيم الاحداث \* للأستاذ عبد الجليل الميساوي كتاب ثري في

مضامينه عميق في مطارحاته ، سلس في أسلوبه ، متنوع في مصادره ومراجعته ، لا أدعي الإحاطة بجميع محتوياته واشكالياته في هذا العرض الوجيز .

## الإحالات :

- 1 - الميساري عبد الجليل / قيم الحداثة - دار نقوش عربية / ماي 1996 - ص 5 .
- 2 - المرجع نفسه - ص 5 و 7
- 3 - المرجع نفسه - ص 7
- 4 - المرجع نفسه - ص 13
- 5 - المرجع نفسه - ص 13
- 6 - المرجع نفسه - ص 13 - 14
- 7 - المرجع السابق - ص 18
- 8 - المرجع السابق - ص 20
- 9 - جابر عصفور / هوامش على دفتر التنوير - المركز الثقافي العربي - ط 1 / 1994 ص 62 .
- 10 - عبد الجليل الميساري / قيم الحداثة - ص 10
- 11 - المرجع السابق - ص 48
- 12 - المرجع السابق - ص 49
- 13 - المرجع السابق - ص 59
- 14 - المرجع السابق - ص 66
- 15 - المرجع السابق - ص 112
- 16 - المرجع السابق - ص 117 <http://Archivebeta.Sakhrit.com>
- 17 - انظر هذا القسم من الكتاب ص 127 إلى 197 .





# الدكتور عبد الجليل التميمي



## يتحدث لـ « الإتحاف »

هاوره : بن حنين

\* التاريخ العثماني لم نؤلفه حقه بالكامل ...

\* الدراسات الغربية تفاقت عن الوثائق الأصلية العربية والتركية .

\* لا نريد هدم كل شيء ، لأن ذلك يعد خطأ جسيما في حق الباحثين الذين سبقونا .

\* هل يقبل الفرنسي أن يبحث التاريخ الفرنسي دون الاعتماد على الوثائق الفرنسية؟

\* المؤرخون العرب المهتمين بالتاريخ العثماني ، كانوا أكثر انصافا وتوازنا في مواقفهم .

\* المؤسسة البحثية الخاصة في الكلية بالابتعاد عن الولاءات الزائفة .

\* نهضة الشعوب لا تعتمد على الجوانب الاقتصادية فحسب .

\* إن أي باحث علمي لا يتقن الإنكليزية ، لا يمكن اعتباره زادباحثا ...

\* أنا غير متفائل بما فيه الكفاية حول مستقبل الباحث العربي ...

\* \* \*

الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي ... أستاذ كرسي التاريخ الحديث بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بجامعة تونس الأولى وذلك منذ 1976 ... ألف 18 كتابا علميا غطت التاريخ المغربي والعثماني ، و « المورسكي الأندلسي » ... يشغل حاليا خطة رئيس اللجنة العربية للدراسات العثمانية ، واللجنة العالمية للدراسات المورسكية ، والإتحاد العربي للمكتبات والمعلومات ... وهو بالإضافة إلى ذلك ، عضو في عدد من المنظمات الدولية ، آخرها نائب رئيس اللجنة العالمية للفلسفة

والعلوم الإنسانية التابعة لليونسكو ... كل هذه المهام والمسؤوليات تجعل من الدكتور عبد الجليل التميمي شخصية علمية متميزة زاده تالفا تأسيسه لأول مؤسسة بحثية خاصة في الوطن العربي التي أعطاها اسم « مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات » ، التي فتحت أبوابها بصفة رسمية منذ سنة 1989 ... ومنذ ذلك التاريخ ، تقدم الإطار الأمثل للباحثين في الحقبة العثمانية على وجه التحديد بمكتبة علمية تحتوي على 15 ألف عنوان تغطي التاريخ العثماني و " المورسكي " والتوثيق والمعلومات ...

وبالنظر لحجم النشاطات التي يزاولها ، والمهام العلمية التي يكرس لها جانبا هاما من مجهوداته ، يعتبر رأي الدكتور عبد الجليل التميمي في عديد المسائل ذا أهمية خاصة ، فهو قد باشر التدريس بالجامعة التونسية لمدة لا تقل عن 20 سنة ، كما أنه اطلع عن كثب على ظروف البحث العلمي سواء في جامعاتنا أو في الجامعات العربية والأجنبية ... « الإتحاف » التقته ، وأجرت معه الحوار التالي :

**الإتحاف: بماذا تفسر اهتمامك بالفترة العثمانية وبالتاريخ المورسكي ، هل أن الدوافع العلمية هي الوحيدة التي تلقف وراء هذه البحوث ؟**

- ليس هناك أسرار خاصة وراء البحوث العلمية التي أجريها حول التاريخ العثماني أو الأندلسي ... وإنما أطمح من وراء ذلك إلى فتح أبواب جديدة للبحث العلمي حول القرون الخمسة الأخيرة ... إن الدولة العثمانية قد مثلت لفترة تاريخية طويلة ، السلطة الوحيدة على شعوب تركيا ، والمشرق والمغرب العربي ودول البلقان ، وأثرت بصفة مباشرة في تشكيل تاريخ الشعوب ... إلا أن الواقع والدراسات المتوفرة بالجامعات حاليا ، تؤكد أن الدولة العثمانية لم تدرس دراسة علمية جادة ... وإن درست خلال فترة تاريخية ما ، فإن جل الدراسات اعتمدت على المراجع الغربية ، متغافلة في الوقت ذاته على الوثائق الأصلية العربية والتركية التي تمثل شبكة معلومات لا يمكن الإستغناء عنها بتاتا ، وهي موجودة بـ« أسطنبول ، وتونس ودمشق والقاهرة ...

**الإتحاف: وهل يعني هذا أنكم تعيدون صياغة هذا التاريخ من جديد ؟ وماهي الإضافة التي تنتظرونها في هذا الباب ؟**

- لقد مثلت الدولة العثمانية كما ذكرنا ، مركزية معرفية تنطلق من الباب العالي لتشمل الدول العربية وغير العربية ونحن لا نسعى إلى هدم كل شيء لأن ذلك يعد خطأ جسيما في حق الباحثين الذين سبقونا ... فنحن ندين للبحث الغربي والباحثين الغربيين بكثير من الدراسات العلمية الجادة ، ولكنهم ، وللأسف ، لم يتمكنوا من الاطلاع على الوثائق الأصلية التي بونت ذلك التاريخ ، والتي ظلت محفوظة في الولايات الراجعة بالنظر للدولة العثمانية ، في حين أن الوثائق الغربية ، وقع استغناء ما بها من معلومات ومعطيات منذ فترة ، ولم تعد تساهم في دفع البحوث العلمية حول التاريخ العثماني ... وهكذا تكون منهجيتنا الأساسية ، الانطلاق من الوثائق

الاصلية ، التركية والعربية التي ظلت لفترة طويلة طي الاهدال ، ويمكن أن نستجد ببعض الوثائق الأخرى سواء أكانت اسبانية أو ايطالية .. ونحن نعيد السؤال من جديد : هل يقبل الفرنسي أن يبحث التاريخ الفرنسي دون الاعتماد على الوثائق الفرنسية ؟ إن الإجابة على هذا هي التي تجعلنا تطرح مسألة المنهجية الأكاديمية المعترف بها على المستوى العالمي ، التي ترى أن الاعتماد على الوثائق الاصلية هو الطريق المثالي للوصول إلى الحقائق الأكثر علمية ... وهذا ما عملنا على تنفيذه ...

**الاحتاف : إذا وحسب ما فهمنا من قولكم ، الدولة العثمانية عاشت لفترة طويلة ، مظلمة تاريخية ، وأنتم ببحوثكم توثقون رد الاعتبار لها ؟**

- نحن لا ننكر أن الدولة العثمانية عاشت مظلمة تاريخية ، أو عثم عليها تاريخيا بلغة أخرى ، وهذا نلاحظه سواء عند المدارس الغربية منذ أن تم نعتها بـ « الرجل المريض » ، أو لدى « الكمالين » الأتراك ( نسبة إلى كمال أتاتورك مؤسس الدولة التركية ) ولم يعد اليوم من يشك في ثقل وأهمية ووزن هذه الدولة في المنظومة السياسية والثقافية خلال فترة تاريخية طويلة ... فمطلقا في البحث العلمي هي بالأساس تلك التي تعتمد على المعطيات الأكاديمية المؤتقة ... لقد نشرنا إلى حد الآن أكثر من 1400 دراسة أكاديمية وذلك بالإعتماد على المراجع الأساسية للبحوث العثمانية ، وطرحنا على الباحثين منهجية جديدة وعملنا على تأطير التوجهات من أجل مزيد كشف الحقائق التاريخية ...

**الاحتاف : وما هو موقف المدارس الغربية من الدعوة الجديدة التي عملتم على التحسيس لها ، والتي تعتمد على منهجية مغايرة ... هل وجدت قبولا لدى الباحثين ؟**

- لا بد أن أشير إلى أنني لا أطلب التغيير الشامل ، بقدر ما أطلب كتابة ذاك التاريخ من منطلق علمي وحضاري ... والملاحظ أن المؤرخين العرب المهتمين بتلك الحقبة التاريخية ، كانوا أكثر إنصافا وتوازنا في مواقفهم ... إلا أن كتاباتهم ، وبالرغم من أنها أصبحت تلعب دورا مهما في تحديد مصيرية تلك الدراسات ، كانت تعتمد بالأساس على المدارس الغربية والأمريكية بالخصوص ، وهي بنورها كانت تشكو بعض الخلل في المصادر المعتمدة ... والمؤرخون الغربيون لم يرتاحوا في البداية لمناهجنا ، إلا أن النتائج التي توصلنا لها ، كانت بعيدة عن شكوكهم ، وهو ما أجبرهم على مراجعة عديد المسلمات ...

**الاحتاف : وماذا عن المدرسة التاريخية العربية ؟**

- هذه المدرسة موجودة ، ولها عديد الثوابت ... إلا أنه من المؤسف جدا أن أكثر من 40 سنة من الاستقلال السياسي في البلاد العربية ، كانت عبارة عن شعارات جوفاء ، تفتقر فيها مؤسسات البحث العلمي ، للبحث العلمي ... والظاهر أن القائمين على هذا القطاع المعرفي الهام ، ظلوا جاهلين لأهميته ، وهم بعيدون كل البعد عن المتغيرات الدولية ، ولم يسعوا خلال عقود من الزمن

أوضع مخططات سليمة وواعية ، تأخذ بعين الاعتبار أهمية البحث العلمي في التنمية ... والسبب - حسب رأيي - أن مؤسسات البحث العلمي أرادت الهيمنة على الباحثين ، إلا أن محاولاتها كلها باءت بالفشل الذريع ... وتبين بما لا يدع مجالا للشك ، أن البحث العلمي يكون حرا أو لا يكون ... أما تلك المؤسسات ، فإنها غررت بالسلطات العليا ، ولم تقدم لها الملفات بدقة وثبات ... وكانت القرارات ، حينئذ ، متأثرة بتلك الملفات ، فلم تتبلور رؤية واضحة أمام مؤسسات البحث العلمي ، وهكذا ، أصبح المستقبل مرتبطا بالمؤسسة البحثية الخاصة ، فهي الكفيلة ، بالابتعاد عن الولايات الزائفة ، والتخفيف في الإجراءات إلى حد ما الأدنى ، وتبسيط إجراءات الرقابة بأنواعها .

### **الإتحاف : قلتم إن البحث العلمي يعدّ عنصر تنمية للمجتمع ، هل لكم أن تبسطوا هذا الأمر أكثر ؟**

- المعروف أن البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، يطرح في المقام الأول إشكاليات المجتمع ، ويدرس الظواهر الاجتماعية الطارئة عن عمليات التنمية ... وفهم تلك الإشكاليات على وجهها الصحيح ، هو بمثابة الاستشراف للمستقبل ، ونتائج البحوث بإمكانها أن تحدّد التعامل المستقبلي مع الملفات الاجتماعية ...

وإن أزيد شيئا ، إذا قلت إن كل البلدان التي عرفت نهضة وإشعاعا حضاريا ، لم تتطور بواسطة العامل الإقتصادي فحسب ولكن العوامل الاجتماعية هي التي تخلق أرضية الحوار بين مختلف الفئات المكونة للمجتمع ... والحوار الذي يفتح الملفات الصعبة والمحظورة هو ما نطمح له ...

### **الإتحاف : وكيف تقيّم وضعية البحث العلمي في الوقت الحالي ؟**

- للأسف ، ما زال البحث في العلوم الإنسانية يمثل عجلة خامسة ... والمؤسف أن وضعية البحث العلمي في هذا المجال حافظت على ثنائيتها ، وذلك نتيجة غياب الحوار عند اتخاذ القرارات وتحديد الأولويات ... ولعل المؤسسة التي أشرف عليها ، ستساهم بصفة فعالة في بلورة مشروع بحث علمي مستقبلي ...

ولا أخفي عليكم أن الغربيين أنفسهم يخشون المؤسسات البحثية الفاعلة ، حتى أن أحد الفرنسيين قال لي بالحرف الواحد : « الحمد لله أن هناك تميمي واحد في العالم العربي » ، لأنه يدرك جسامة المهمة التي تضطلع بها مؤسسات البحث العلمي في المجالات الاجتماعية على وجه الخصوص ... وفي تونس لدينا العديد من الباحثين المتميزين كالتاهاير لبيب على سبيل المثال ... إلا أن الكثير منهم - وللأسف - انطفؤوا قبل أن يبدؤوا ، ولا بد أن يدرك الجميع أن الباحث رأسمال خطير يساهم بصفة فعالة في إشعاع المكانة العلمية للبلاد ... فتفسير مهمته وتقديم الدعم المادي والمعنوي ، يبقى من بين الضروريات ، لأن الباحث في الوقت الحالي ، يعيش مكبلا بالكثير من القواعد البيروقراطية التي عطلت المهمة الأساسية التي يعمل على أدائها .

### الإتحاف: وما هي حسب رأيك مميزات الباحث العلمي الجاد ؟

– لقد تعرفت إلى عديد الباحثين المتميزين الناطقين بعديد اللغات مثل الإنكليزية والفرنسية ... وأقول – ويون أدنى شك – إن أي باحث لا يفقه الإنكليزية لا يمكن اعتباره باحثاً ، لأن 70 ٪ من المخابر تعمل باللغة الإنكليزية ... والتوقع على اللغة العربية – حينئذ ، يجعل مهمة الباحث صعبة للغاية ، إن لم نقل منقوصة من عديد الإمكانيات المتوفرة لغيره من الباحثين ... ونلاحظ أن بعض الباحثين ممن كتبوا باللغة الفرنسية ، لم يحاولوا ترجمة بحوثهم إلى العربية ، وهذا في حد ذاته يعد عدم احترام للهوية وللبعد الحضاري للعربية ، ولم يكلفوا أنفسهم تعريب ما كتبوه بالرغم من قدرتهم على ذلك ، جاعلين بذلك بحوثهم في معزل عن عديد القراء سواء في تونس أو في باقي البلدان العربية ... والمؤلم أن بعض باحثينا لم يكتبوا ولو بحثاً واحداً باللغة العربية ، في حين أنني وعلى سبيل المثال لا الحصر – كتبت كل بحوثي باللغتين العربية والفرنسية ، وذلك تسهيلاً لقراء اللغتين ... وتبقى المعضلة الكبرى في ندرة القراء ، فالواضح أن العرب لا يقرؤون ، وإذا صادف أن قرؤوا لا يوظفون قراءاتهم . ونحن لا نؤاخذ أحداً ، ولكننا ندعو إلى بناء مجتمع قوي الدعائم ...

### الإتحاف: وكيف ترى مستقبل البحث العلمي في بلادنا وفي الوطن العربي بصفة عامة ؟

– في تونس ، نحن نملك العديد من الباحثين الممتازين على غرار الأستاذ المنصف الفخفاخ ، ووحيد قدرة ، ومراد رقية ... وتؤكد لدينا ، بناء على عديد المؤشرات ، أن الأجيال القادمة هي الكفيلة لوحدتها بتقدير الجهود الكبيرة التي يبذلها الباحث لإنارة سبيل الآخرين ... وبالرغم من أنني غير متفائل بما فيه الكفاية بمستقبل الباحث العربي ، فإني أرى أن اتجاه الحكومات العربية نحو الخصوصية ، قد يفتح مجالات جديدة أمام الباحثين وكذلك أمام مؤسسات البحث الخاصة ... وأدعو بهذه المناسبة من يمسكوا بالمؤسسات ، خلال هذه الفترة على الأقل ، إلى مزيد التعاون والتحاور وإبداء الرأي ، لأن هذه العوامل هي الوحيدة التي بإمكانها أن تنهض بالبحث العلمي ، وتساهم في بلورة ثوابت المجتمع الذي نريد ...

# شعراء القيروان وتجذير الشعر في المحيط المحلي

بقلم : خليفة الخياري

## 1 - حدود البحث ونماذجه :

قد يكون من السابق لأوانه ضبط الخصائص الفنية الثابتة في مدونة الشعر القيرواني ، كما يذهب إلى ذلك بعض الدارسين لاتجاهات الشعر التونسي الحديث . خاصة وأن المجموعات الصادرة إلى حد الساعة لم تتل ماهي جديرة به من تحليل معمق ، حتى وقد مضى على إعلان البيان الموضح لتوجهات هذه « المدرسة الشعرية » في الملتقى الأول للشعر الحديث بالمركز الثقافي الدولي بالعمامة سنة 1981 ، أكثر من عقد ونصف . لذلك لا ينبغي الحديث عن مذهب شعري متفرد إلا بإعتباره مشروعاً أو تجربة أخذة في التوضيح باستمرار أعلامه في الإلتزام بينود بيانهم وأهمها :

أ - البحث عن جمالية لسانية جديدة

ب - إستلهاً النفس الصوفي في التعبير

ج - النزوع بالقول الشعري منزعا كونيا

د - الإلتزام بقضايا الأمة العربية

هـ - التجذر في المحيط المحلي (1)

ولئن كانت هذه المبادئ لا تازم الشعر فقط . ونجد صداها في النصوص القصصية أيضا ، ولا سيما ما صدر لحسونة المصباحي ، ( 2 ) فإن قياس مدى حضور هذه المبادئ الخمسة في كامل المدونة الشعرية يتطلب عملا تحليليا أكثر عمقا وشمولية مما يسمح به هذا المجال . لذلك نوقف البحث على مجموعتين شعريتين : « من البحر تأتي الجبال أو ألواح 2 » للمنصف الوهايب ( 3 ) . و « ديوان الوجد » لجميلة الماجري ( 4 ) . ونقتصر على محاولة تفكيك معنى البند الخامس ، أي « التجذر في المحيط المحلي » ( 5 ) من منطلق فهمنا لهذا المبدأ على أنه يتحقق في النص الشعري باستدعاء الرموز الحضارية المحلية الموحية بالخصائص الحضارية التي تمتاز بها القيروان وهي المهاد الأولى للتجربة ، ثم تونس وهي البيت الأكبر ، ثم المغرب العربي أو الشمال الإفريقي بصفة أعم ، ما دام يمثل وحدة جغرافية وتاريخية مترابطة ، ولا تخلو من خصوصيات حضارية جزئية لكل بلد منه على حدة ... فما المقصود بالرمز المحلي ؟ وإلى أي حد يساهم في تكوين النص الشعري القيرواني ، وفي تحقيق شعرية ؟ ثم هل يمكن للباحث أن يتوخى هذا البند في تحديد خاصية فنية تستأثر بها هذه المدونة ؟

## 2 - في معنى الرمز المحلي وإمكانية تبويبه :

إن ما نعنيه بالرمز المحلي هو المفردة التي يستخدمها الشاعر في نصه استثمارا لدلالاتها

التي تثبت في سياق القول . فإذا تكاثفت المفردات المحيلة على مرجعية معينة أو الدالة على زمن أو مكان بعينه ، شككت خطابا ضمنيا يندرج في الإطار العام للقصيدة مخصبا لشعريتها وذاهبها بها مذهبها جماليا مخصوصا أساسه تداخل الحقول الدلالية وتدافع دوالها حتى ليقول النص شيئا « وتتحقق الشعرية فيه بقول آخر ينضم إليه ، يتخذ من القول الأوّل إطارا ماديا يزرع فيه ويكون معه وحدة لا تنقسم » ( 6 ) .

ولما كان مدار بحثنا هو الرمز المحلي أي المسميات المنسجمة ضمن المعجم الشعري العام ، والتي تعود أصولها إلى البيئة القيروانية أو التونسية أو المغاربية ... فإنه من الضروري إحصاء أصنافها ، وتبويبها في المجموعتين ، قبل تناول أشكال توظيفها . لأنه « لا يستوي المنهج والسبيل قبل إثبات الشاهد والدليل » . ولقد تبين لنا بالإحصاء والمقايضة أنّ المسميات ذات المرجعية المحلية في « ألواح ( 2 ) » و « ديوان الوجد » قابلة للتبويب ، وإن كان حضورها تختلف كثافتها من مجموعة إلى أخرى . وقد تختلف من قصيدة إلى أخرى داخل المجموعة الواحدة . وليس التبويب غرضا ، وإنما هو مدخل لتحديد جداول متباينة من أجل معالجة أصناف النوال مرتبة ويمقتضى ماهي عليه من كثافة . لأنّ الدالّ قد يحضر في سياق القول عرضا ، ومرة واحدة ممّا يخرجها عن مدار التوظيف الذي يستند إلى الظاهرة الشائعة ولا يطمئن إلى الأعراس . مثلما نجد لفظ « المبخرة » مفردا في قصيدة لمحمد فوزي الغزي ، وواردا في غير الغرض الذي نسعى إليه :

فيا جنيات الليل المسحور  
مزيدا من إحراق الشذى  
في مبخرتي  
إني وجل  
وخطايا تجسّ  
طريق الجنة  
والحيّة أوّل أنثى  
تفتّح في ووعي  
تشرق في كلّ ... ( 7 )

أمّا المسميات الحضارية الواردة في المجموعتين المذكورتين ، فإنّها تمتاز بمرونة التصنيف من حيث قابليتها للإتقسام إلى أربعة جداول : أسماء أعلام - أسماء معالم - أسماء مدن - وأنوات أو مسميات حضارية جزئية . وتمتاز أيضا بتوزّع متنوّع ومتباين نسبيا في نصوص المجموعتين حسب ما يبيّنه التبويب اللاحق :

#### أ - من البحر تأتي الجبال - المنصف الوهايي :

أسماء الأعلام	أسماء المعالم	أسماء المدن	الأدوات
* ابن غلبون + * ابن مسرة الأندلسي + * أبو القاسم الشابي * مولاي إدريس	* الأسوار + * الشاهدة * القبر * الجامع	* القيروان + * توزر + * فاس * تمبكتو * قرطبة	* الودع + * البرنس * العود * الكافور * التميمية * الشمع * العربية * المعجن * الرماد * السجوف + * الألواح + * النول + * الخرج * الرقي + * التّعاويد + * الدرع

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

\* **ملاحظة :** الإسم الذي يرفق بعلامة الإيجاب ( + )

يتكرر في المجموعة أكثر من مرة **بواسمه**

أو بالضمير العائد عليه .

ب - ديوان الوجد - جميلة الماجري :

أسماء الأعلام	أسماء المعالم	أسماء المدن	الأدوات
* حسان بن النعمان * طارق بن زياد + * مؤنس * عقبة بن نافع + * المعز بن باديس	* السور الأغلب * قصر رقادة * بيت الصلاة + * جامع عقبة * العتبة +	* القيروان + * تونس	* الخلاة * الأنوال * البخور * القهوة * التعويذة



* الحصير	* المقصورة +	* عبد القادر الجيلاني
* مرود الكحل	* المزلاج الحديدي	* خديجة +
* الحناء	* الجريد	* الجازية الهلالية +
* الزيت	* الخيمة +	
* القنديل	* الباب الأغلي	
* السيف	* الباب الراشدي	
* الزربية	* الاقية +	

ففي المجموعة الأولى تتسع المرجعية المحلية لتشمل كامل الشمال الإفريقي في باب أسماء الأعلام وأسماء المدن . وقد تمضي إلى الأندلس . بينما ينحصر باب المدن في المجموعة الثانية ، في حدود تونس أو بالأحرى إفريقية . وفي باب أسماء المعالم يظهر التباين : فهي عند الوهابي عامة ومحدودة العدد . أمّا في ديوان الوجد فهي أكثر تخصصاً ( التركيب النعني + التركيب الاضافي ) ومستمدة من الإطار المكاني الأم وهو مدينة القيروان . في حين نلمس نوعاً من التعادل العددي في باب الأدوات أو المسميات الحضارية الجزئية ، ونوعاً من الالتقاء حول بعض الأدوات كالأنوال والتعاويد . مع اختلاف ضمني حول طبيعة الأدوات التي تغلب عليها النوعية الرجالية في المجموعة الأولى . وتغلب عليها السبغة الانثوية في المجموعة الثانية . من حيث استعمال تلك الأدوات في الحياة العامة .

### 3 - توظيف أسماء الأعلام : نقاط الالتقاء والاختلاف :

يلتقي الشاعران في التعامل مع أسماء الأعلام وفق الاختيار المسبق للإسم ليكون مفتاحاً لقول الشعر . ومن حيث استدعاء ما يحيط به من موحيات قداسية تفتح نافذة على استلهام النفس الصوفي في التعبير وهو البند الثاني ( ب ) . ففي الاختيار المسبق للإسم يجنح الشاعران إما إلى إتخاذ المسمى نفسه عنواناً للنص الشعري ، وإما أن يتخذ من ماثور فاعله وخصاله مجالاً للقول ... ومن الاختيار الأول ما نجده في مجموعة الوهابي من أسماء أعلام واقعة في محلّ عناوين نصوص : ابن غلبون القيرواني ( وهو أمير أغلي عاش في القرن الثالث الهجري واشتهر بالمجون ، ثم تخلى عن كلّ شيء وتصوّف في آخر عمره ) - ابن مسرة الأندلسي ( وهو من متصوّفي القيروان وقد ورد عليها من قرطبة حاملاً معه مذهب وحدة الوجود . وعاد إلى الأندلس حيث أحرقت كتيبه وتوفي في منتصف القرن الثالث الهجري ) ( 8 ) ... وكذلك في ديوان الوجد تستأثر بعض أسماء الأعلام بتيجان القصائد : خديجة ( ص 81 ) - الجازية الهلالية ( ص 93 ) ... هذه العناوين تنهض بوظيفة التأطير لأنّ كامل النص يعود عليها . والمتقبل يعلم مسبّقاً أنّ الصور وأشكال التعبير ستظلّ منشدة إلى الإسم ، واصفة إيّاه ، ومستجيبة أهمّ مراحل حياته ، ونافخة فيه من روح الشعر ما يجعله ماثلاً في الذهن على هيئة تفرض التعظيم والجلال ... وقد تتعالق الضمائر فيتقمّص الشاعر شخصية الاسم - التاج على طريقة الطول الصوفي ، فإذا

« أنا الشاعر » هي « أنا المتصوِّف » كقول الوهابي على لسان ابن غلبون :

بين المجنوبين ساجس منفردا

أو بين المجنومين

وأربط في عنقي جرسا

فاغنم ما شئت ودعني

فبلائي في قلبي

لا براء له أبدا ( 9 )

في سياق سعيه إلى بلوغ درجة عالية من مناحي السمو النفسي ، وضروب الخلاص الذهني من عدمية الوجود واختناق الرُّوح في كون تتماسخ موحياته الاسمية أو تتبدل باستمرار .

وعلى الوتيرة نفسها تحلَّ جميلة الماجري في إهاب الجازية الهلالية متخذة من تقريبتها نمطا من الفوز الذهني ، فإذا الامتثال الذهني « لأنا الغير » يصبح تماثلا فنيًا يستنفر فريدة الأنثى الحكيمة ، تلك التي كانت في الماضي تثير وتؤثر وفاعلة في حياة الجماعات البشرية تتكلم بلسانها وتتحرك بلوامرها الصائبة في أغلب الأحوال :

وإنَّا ستلتقي إذا اكتمل العدُّ جيشا

يسير إلينا ولا يهتدي

فلا تحفلوا تجفلوا الخيل ... ليسوا

بمن يدرِكوا غاية إن سعوا

فإنَّا وعدنا بها وحدنا

وإنَّا ستجتاز سبعا إليها ونفتح سبعا

فحطُّوا عن الراحلات المطايا

سنتنظر الوعد يأزف من رقة الحلم

لا تعجلوا في اقتطاف المنى ... ( 10 )

أما القصائد التي يحلَّ فيها إسم العلم موظفا بخصاله وفعاله فتتمتاز بكون مواقف الشاعر من تلك الصفات ومن العصر الذي ظهرت فيها ، واضحة ، يلحُّ على إثباتها والإعلاء من شأنها مما يجبر النص على تحمُّل وزر انفعالات الشاعر تتصبَّ فيه بأسلوبها الغنائي الذي يؤدي إلى جدل خفي بين زمنين يتسجان لحظة القول : زمن الشاعر يستدعي مأساة الإسم الغائب ، وزمن الغائب يرصد ما يستعاد ويتكرر في حاضر الشاعر ... كذلك يبعث الوهابي ابن مسرة الأندلسي فيحضر ببعثه زمن مخصوص بروائحه ومفاته وألوانه تكتسح أوصال القصيدة معدمة في الشاعر زمنه الرأهن غير المرغوب فيه لحظة الاستلham :

خذها

مضمخة بريح العود والكافور

وردة لها ذراعيها

وساقبها

وهيكلها الرّميم

عسى أن يستوي زمن قديم ( 11 )

وكذلك أيضا تتدارك جميلة الماجري بالشعر هنات التاريخ فترسم هامشا يسترجع زمن  
الفروسية والثورة والشجاعة في شخص علي بن غذاهم الذي ينبعث من نبضة القلب هالة من  
حنين لوقع سنايك الخيل مدفونة ... وتقف في وجه لحظة رد الاعتبار منبهة إلى إغفال هذا الفارس  
المنسي :

يا سيدي

من أين تبدأ في الرثاء مواجمي ؟

بالأمس قد كانوا احتقوا

بالعائدين ... وكرموا الأحياء والموتى

ونمقوا الأشعار والكتب

واستزلوا النجم البعيد ليزرعوا

فوق القبور الورد والشهبا

لم يذكروك ... وكالمسيح ظلت

لاقبرا ... ولا نصبا : ( 12 )

هذا الجانب يخصّ توظيف أسماء الأعلام بقواتها . ونجد بين الشاعرين نقطة اشتلاف ثانية في  
شان توظيف أسماء الأعلام بصفتها . وتلك الصفات هي التي تكتسب طابعا قدسيا يستحضر  
الطهر والكرامة والجذور الغيبية الأقلّة ... في مجيء ابن مسرة الأندلسي عند الوهايمي كالمسرى  
غير ممدّد له ، يدخل القيروان غريبا وحيدا في إطباق صمت الليل وهذا أسداله :

لا القيروانيات

علّقن في باب الضريح تميمة

للضيف أو ودعا على أثوابه

وأضأن شمعتهنّ

عند وساده

لا خفق أجنحة

( وكانت نجمة الرأعي

على حجرين من بيتي ) ( 13 )

في هبة صاحبة ديوان الوجد للوقوف حافية في حضرة عبد القادر الجيلاني الذي يحلّ من عبق  
البخور في ذات الشاعرة المريدة روحا لا جسدا :

أسمع وقع خطوك في الغناء

فأجئني حافية إليك

وأقوم خلفك للصلاة !

وكأنما بيني وبينك خلوتان  
وكأنما بيني وبينك أن أمدُّك يدي  
بل إنه ... لكأنما بيني وبينك شهقة  
أو شهقتان ! (14)

فاسم العلم إذن ، إما أن يكون مفتاحا لقول الشعر ولياب زمنين متدافعين متجادلين يتوسل به الشاعر للقطع بين المتقبل وواقعه . إذ يكون ملزما بتمثل زمن الشخصية المنتخبة التي هي محور النص . وإما أن يكون علامة لاستدعاء نقالة الزمن الأقل وقداسته . فمهما تغلب الأبعاد الدينية لتلك العلامة أو تديم من جرأ منهاها في طيات التاريخ « فإن الحداثة تسريها بقداسة » أي تستحضرها في غير زمانها محفوفة بجلاء القدم وبهاء الماثور الذي يمثل نفارا وقطيعا للراهن الآسن بطبيعة أسبقيته عليه : ( la modernité sacralise les choses ) (15) .

ولعل نقطة الاختلاف الأكثر قدرة على شد الانتباه بين الوهابي والماجري في شأن توظيف أسماء الأعلام ، تظهر في مدى تباعد الأزمنة التي توحى بها الشخصيات المستحضرة . فالأسماء في ألواح الوهابي توزع بسياسة ذهنية في أمكنة متنوعة يمتد بريقها ورويقها على مدى زمني يبدأ بالقرن الثالث الهجري ( إبن مسرة - ابن غلبون ) وينتهي بمسئله القرن العشرين ( الشابي ت 1934 ) . أما مع الماجري فالأسماء تمثل سياحة ذهنية ترصد ألوان الرقي الحضاري في إطار مكاني معلوم هو مدينة القيروان أيام ازدهارها واشعاعها مشرقا ومغربا ( طارق بن زياد - مؤنس - عقبة بن نافع - المعز بن باديس ... ) مما يجعل التجدير ذا بعد مغربي في المجموعة الأولى ، وذا بعد قيرواني في المجموعة الثانية .

#### 4 - حدود توظيف أسماء المعالم والمدن :

لا يخلو الفصل الذي تعمدناه بين المعالم والمدن من تعسف ، وإن كانت الغاية الجوهرية منه هي تبيان الفوارق بين تجربتين شعريتين من اتجاه واحد . لأن توظيف المعلم أو بالأحرى العلامة المعمارية كالسور ، والقصر ، والمقصورة ... قد يكون توظيفا إحياليا الغرض منه الإشارة إلى خصائص مدينة معينة . كما أن إسم المدينة قد يؤثر لامتياز معماري فيه أي لانفراده بخاصية معلم أو بعض معالمه ... لهذا نعيد وصل البابين في سياق معالجة الاجراء الفني لهذه المسميات . وبذلك الربط تتوضح لنا أولى الفوارق بين المنحيين . ففي الألواح الثانية ترى أسماء المعالم المعمارية محدودة العدد : ( الأسوار - الشاهدة - القبر - الجامع ) . وهي مسميات عامة لا تخص مدينة معينة . وإنما هي علامات لأي مدينة عربية إسلامية . ولعل ذلك هو الغرض الذي ينشده الشاعر : أن يرسم بالجزئيات صورة كلية للمدينة العربية التي مسخت الحداثة معالمها فطمست نصاعة حضارتها الزائلة وإن كانت الشواهد باقية . وغرضه الشمولي هذا يزداد توضحا بتأمل أسماء المدن ( القيروان - توزر - فاس - تيبكتو - قرطبة ) وكيفية توزعها الجغرافي على كامل المغرب العربي بمثابة الأعضاء السحرية الفاتنة في جسم « كان » مكتمل الحسن متناسقه :

قل لنا

من أي باب جنتها ؟  
كيف تناهيت إلى أسوارها  
حتى استسلم الضوء  
وأغفى في بديك الجمرتين ؟

أه أعمى في بساتين أبي  
فلتكن ريشتك الضوء الذي يقتاد  
هذا المغربي ! (16)

هكذا يتدرج توظيف أسماء المعالم والمدن في مجموعة الوهايبى : تتناهى الجزئيات إلى كليات،  
والعلامات إلى دلالات ، فإذا الخريطة بساطا مغاريبا سحرى ، يعتليه المتقبل مستنطقا الأسوار  
ومخترقا الحدود . وأبقا من بهتان معالم عصره وزيف جمالياته منجذبا إلى بواطن التراكم  
التاريخي لكانه يتكشف عن غيب أو يتطهر من رجس ... وببلوغ المتقبل ذلك المبلغ يكون الشعر قد  
طال جدراته بأن يعدّ حدثا أثيرا .

ولأسماء المعالم والمدن منحى توظيفي مغاير لا يعدم سحر الاختلاف في ديوان الوجد . فافتتان  
الماجري بالخصائص المعمارية لا يكاد يحدّ . في حين تكثف بالقيروان يتكرّر ذكرها في المجموعة  
أكثر من عشر مرات ، فإذا هي البؤرة المفردة التي تتوسط النسيج الحضاري العام الذي  
تستحضره مفككا في علامات دالة بواطنها الخاصة وبعلقتها الحتمية بالمدينة - الأصل . وعادة  
ما ترد العلامات المعمارية في صيغ تخصيصية تنهش تحويلا بمهمة وصل المعلم بأصله كما يبدو  
لنا من استقراء تراكيب النعت والإضافة : ( السور الأغلبي - قصر رقادة - جامع عقبة - الباب  
الأغلبي - الباب الراشدي ) . ينتهي التعداد إلى التوحد . ويلتقي شتات الزمان في أيام القيروان ،  
قبلة الشاعرة تعيد تأسيس ما يأخذ الدهر من ملامح مجدها ... فتحضر في الذهن شاهدا ودليلا  
على المتغير الحضاري ، ونقيضا للمدينة المهذومة والمذمومة دأبا في الشعر الحديث ... موجية  
مرغبة « يمثل الحجر أبسط جزئيات إنجازها وأدلّ مدلولات إعجازها ... » : (17)

فإنك لما

تضمينني يصغر العمر عشرين عاما  
وأظفر بالطفلة الهاربة  
فألقى على كل باب حبيبيا  
وفي كل منعطف ألتقي  
بقصة عشق قديم  
وأصحو على صوت ذاك الرنين  
رنين الخلافة ما غادر السمع والذاكرة  
كان الحرائر قمن لأنوالهن  
ووضبن في الفجر أجواك الساحرة

وفي دفة تلك السقائف فاح البخور

ورائحة القهوة الفائرة

بذاك الزمان الحميم ... (18)

ومهما يكن من أمر هذا الجانب ، فإنه يتبين لنا بالمقارنة أن توظيف أسماء المعالم والمدن أقل عمقاً وأحد أبعاداً من توظيف أسماء الأعلام . وعلى هذا الأساس نتحدث عن حدود التوظيف بما أن المعلم تتوقف موحياته عند خاصيته المعمارية في مرحلة تاريخية معينة . أمّا العلم فيوصفه إنساناً تظل أبعاده غير محدودة ، وإمكانيات الاستفادة من تلك الأبعاد لا تعد ولا تحصى لنمط ثابت ... كما أنه ليس من المنطقي التفريق بين الفاعل في الحضارة ومفعوله المتجسم فيها إلا من باب الترتيب المنهجي الضروري لدراسة أشكال التوظيف . أمّا الأصل فإن تعامل المعلم على أنه فعل إنساني مائل وناطق الصمت . وأن تعامل العلم على أنه مشروع معلم حتى وإن لم ينجز بعد ، فإنه ضرورة منشودة إذا انعدمت في ذات المسمى أضحي غير جدير بصفة العلم المشهور .

### 5 - توظيف السميات الحضارية الجزئية ( الأدوات )

تأتي السميات الجزئية أو الأدوات في آخر الجدول لتؤثت الفضاء المستحضر . وبذلك ترتقي القصيدة القيروانية إلى مستوى « حضارة في عبارة » تضمج بالحركة والفعل ، ومتشعبة بالقيم والألوان وطافحة بالرفائيل والكرامات والسحر ... تأخذ سبيل الارتداد المقدس إزاء سطوة المحدث . وتترفع بالتغيب عن هوة التفريب ... على أن بين جدولي الأدوات فوارق . فمع الوهابي تزج الأدوات بالمتقبل في عالم الفقد . ومع الماجري تغضي الأدوات إلى الوجد . والفارق بين الفقد والوجد نو مرجعية صوفية . فالأول هو « الانفصال الوجداني التام عن الدنيا » والثاني هو : « ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف ولا تصنع » . أي هو المرحلة السابقة للفقد حسب المراحل التي يضعها « الجنيد » ويكون بمقتضاها التوحيد بداية ، والوجود ( الفقد ) نهاية الاسراء الصوفي ، والوجد واسطة بينهما ... (19) فأغلب الأدوات الحاضرة في الواح الوهابي تهفو إلى الغيب وتتعلق بعجبيه ومعجزه : ( الودع - البرنس الأبيض - العود - الكافور - التمية - الشمع - الرماد - السجوف - الرقي - التعاويذ ) . وللشاعر دور واضح في انتخابها بدقة متناهية لمعاودة النفس الصوفي وتكثيف رموزه :

هكذا كنت أرقى إليها

ولا شيء في الخرج

لا شيء

غير رقي وتعاويذ

مبتلة بضراعات أمي ... (20)

وهي على صلة وثيقة بالفضاء المؤسس ( الأسوار - الشواهد - الجامع ... ) وعلى صلة كذلك بأسماء الأعلام ( ابن غلبون - ابن مسرة ) وكلاهما صوفي أبق من غواية الأرض وفتنة الذائد ... ومنقطع إلى مرادة السماء عن بوابة الخلاص الروحي . فالأدوات في شعر الوهابي إذن يمكن وصفها بمستحضرات التغيب التي يكتمل بها المشهد الصوفي المتخيل من حيث هي غرض

مقصود في القول الشعري . وتقوى بها اللغة الشعرية على اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول التي تحكمها إلى دنيا الصدفة والبذاهة وحد إبلاغ المعنى ... من حيث هي أداء فني مخصوص .  
 وإنها لمستحضرات أرضية ترسم عموديا سبيل التوق إلى المطلق الغيبي .  
 أما الألوات في شعر جميلة الماجري فصنفان : صنف تذهب في اختياره وتوظيفه مذهب الوهايب ( البخور - الوسائد - التعويذة - الحناء - النمارق - القنديل ... ) ويتكثف في القصائد ذات الأنفاس الصوفية المحض كما هو الشأن في قصيدة «موجدة» :

أنا وحدي حبيبه  
 أنا وحدي وقد كذبوا  
 أنا وحدي وإن صدقوا  
 أنا الموعودة ارتجعت  
 فذي الحناء في قدمي ما زالت  
 على العتب  
 وذا عطري بخذ الباب معتلق  
 وذي بؤابة المعراج قد أرت  
 إلى لقيائي منشرفة  
 وهذا الموعد المرصود قد أزفت  
 بوادره

علامته انتساخك أيها الجسد . (21)  
 والصنف الثاني من الألوات يحكمه الحنين إلى القيروان الأمس يصادف الوجدان من غير كلفة ، ويتعدى بنفسه إلى القول الشعري ليجوش داخل أطر مكانية باقية في الذاكرة ( الجامع - البيت - المخدع ) - أو داخل إطار واحد في أوقات متنوعة : المنزل القديم ( في النهار - في الليل - في الصباحات وفي الأماسي ... ) . فالزرايبي والأنوال والحصير والخلالة ترسم مشهد فاعلية الأنثى وابداعها اليدوي الذي اقترن إسمه بالقيروان . والمرود والحناء والقنديل يرسم مشهد التزيين ... والسيف في انفراده ضمن هذا الجدول قد يلحق بالمرود في محل مشبه به للحاجب المزجج في دقته واستقواسه ، ولا يمنع ذلك من أن لا يفقد رمزيته المتصلة بالعرّة والفتكة البكر ... هذا الصنف ينشد لزوما إلى الإطار المكاني الأوحده فيرسم للشاعرة مسرى أفقيا يتيح مقاطعة الحاضر بالوحياني في جمال الأمس وما ينطوي عليه من بساطة ساحرة . وقد يصبح توقا في مثل الحلول تتعالى فيه معاني الوجد بمعاني الفقد في ألفة وتناغم :

كانت خديجة قد غفت  
 في بيتها بالقيروان  
 فرأت  
 ما لا يرى الزاكي  
 فكأنما المقصورتان

في غرفة النوم العتيقة ... والفراش

القيرواني

والزرايبي الأغلبية

والنقوش الفاطمية في السقوف

مجلوة للعين أجمعها

والشيخ قام بقبو غرفتها إلى صلواته

فحسست رجع الوجيب بصدرها

هذا اشتباه المنحو بالحلم القديم . (22)

كذلك يتجذر الشعر القيرواني الحديث في محيطه المحلي فيكتسب هوية إبداعية واضحة وبخاصية فنية بيّنة ترصدناها من خلال نموذجين نراهما من أنضج تجارب شعراء القيروان في هذا المضمار. وبذلك الأبعاد المحلّة يساهم في إخصاب المعجم الشعري التونسي . فإذا كان هذا البند وحده يسمح بالحديث عن وجهة إبداعية متميّزة وذات خصوصيات ، فالحديث عن مدرسة شعرية قد يصبح جائزا إذا كانت بقية البنود في التجارب الشعرية الأخرى حاضرة بهذا المستوى وإنه ليصبح ممكنا - بلاقد - إذا أعطت الدراسات النقدية لهذا المنزع حظّه الكامل في السّبر والتحليل . واستمر الأغلبية المعاصرون في ترجمة مبادئهم إلى أعمال إبداعية .



ARCHIVE

\* الإحالات :

1 - يراجع في هذا الشأن

Josefina Veglison : le courant mystico-cosmique - ou l'école poétique de

kairouan - IBLA n 172 - T 52 (1993- p 277

2 - نشير بالتحديد إلى مجموعته القصصية « حكاية جنون بنت عمي هنية » - دار الرياح

الأربعة للنشر - ط 1.

( تونس 1985 ) .

3 - من البحر تأتي الجبال - دار أمّية للنشر - ط 1 ( تونس 1995 )

5 - أدرجنا في البداية مجموعة محمد فوزي الغزي « مدن للحزن ويوم للفرحة » - دار أليف

للنشر - ط 1.

( ب - ت ) ضمن مصادر هذا البحث . إلا أننا وجدناها تستجيب أكثر لتحقيق البنود الثلاثة الأولى ( أ - ب - ج ) ولا يتنزل ضمنها البند الخامس إلا منزلة ثانوية ... لذلك اكتفينا بنموذجين عوضا عن ثلاثة .

6 - د . محمد الهادي الطرابلسي : حدود صناعة الشعر - ضمن أعمال نوبة « صناعة المعنى وتحويل النص » - منشورات كلية الآداب ببنوية - سلسلة الندوات - المجلد الثامن ( تونس



- 1992 ) - ص 174 - 175 .
- 7 - محمد فوزي الغزي - مدن للحنن ويوم للفرحة - ص 32
- 8 - وردت الترجمة ضمن هوامش مجموعة الوهايبى - ص 103 .
- 9 - المصدر السابق - ص 15
- 10 - تغريبة الجازية إلى القيروان - ص 97
- 11 - من البحر تأتي الجبال - ص 23
- 12 - مرثية متأخرة إلى الفارس المنسي - ص 59
- 13 - ابن مسرة الأندلسي - ص 25
- 14 - فاتحة الغيب - ص 76
- C.Fromilhague - A. Sancier : Introduction à l'analyse stylistique - Bordas -Paris 1991 - chap . << l'empire des signes >> - p 12
- 16 - عند أبواب القيروان - ص 9
- 17 - انظر دراستنا حول ديوان الوجد بعنوان : مفاتيح الوجد الستة - المعلق الثقافي لجريدة الحرية - الخميس 15 جوان 1995 - ص 4 .
- 18 - محظية إسمها للقيروان - ص 14 - 15
- 19 - الشريف الجرجاني - التعريفات - ط - مكتبة لبنان ( بيروت 1969 ) ص 270 .
- 20 - من البحر تأتي الجبال - ص 75
- 21 - موجدة - ص 32 - 33
- 22 - فاتحة الغيب - ص 73 - 74 .

# تقاطع الواقع والتراث في :

## رحلة السندباد : السّفرة الثامنة \*

### لابراهيم درغوثي

بقلم : عمر حفيظ

إنّ موازين السرد خفيفة إذ قسناها إلى موازين الشعر ، عندنا ، فما كتب عن الشعر وتاريخه وإعلامه يكشف عن الغبن الذي لحق بالسرد ، والحال أنّ المدوّنة السردية ضخمة ، ويكفي أن نذكر بعض العناوين للتمثيل فقط : ( الأغاني - الأصفهاني / العقد الفريد - ابن عبد ربه / البخلاء والرسائل والحيوان - الجاحظ / المقامات - الهمذاني ) .

ولا شك أنّ السابق يلقي بظلاله على اللاحق ، لذلك فمن النوافل أن نقول إنّ النصوص لا تنزل على أصحابها وحيا من السماء وإنما هي تنشأ على الأرض من الناس ، تتناسل من بعضها وتتوالد ، منها ما تخفى فيه آثار السابق ، فتتوهم أنه مقطوع الصلة بما قبله ونراه فريدا ، ومنها ما يفصح عن مراجعه ، فنقاربه وقد يظن العجول منا ، أنّ البساطة واليسر والوضوح هي سمات تلك النصوص ولكن الدارس المتأنّي قد يقف على صعوبات كثيرة وهو ينظر في نصوص ركبها أصحابها فجمعوا فيها بين نواتهم بما لها من خصوصيات وحدود ونوات أخرى ، لها ، هي أيضا عوالمها ورواها ومواقفها الخاصة .

وإجمالا للقول ، فإننا تلخص تلك الصعوبات التي تصورتها في الأسئلة التالية :

- لماذا تقصص بعض النصوص عن مراجعها ؟ والحال انه بإمكان أصحابها اخفاؤها على بعض القراء على الأقل ؟

- ماهي وظيفة تلك المراجع القديمة في هذه النصوص ؟ وكيف تكيفت فيها ؟

- ماهي الصلة بين راهننا الثقافي عامة والإبداعية خاصة بماضيها والحال أن كليهما تعبير وتجلّ لواقعين مختلفين؟ كيف يتسرب ما مضت على تأليفه أزمنة طويلة إلى أذهان الناس وإلى ما يكتبون اليوم في عصر الفضائيات والأقمار الصناعية ؟ إن كنا سنكتفي بالإجابة عن بعض الأسئلة دون الكل فقد فضّلنا أن يكون كلامنا مقيدا ولذلك فقد انتخبنا لهذه الغاية قصة ( حكاية السندباد : السّفرة الثامنة ) من مجموعة ( الخبز المرّ ) لابراهيم درغوثي وغاية البحث هي الكشف عما بين هذا النص ونص تراثي هو ( ألف ليلة وليلة ) من تعالق ، وتحديد بعض الوظائف التي انعقدت للتراث فيه .

إنّ القصة موصلة من حيث العنوان والبناء إلى نص ( ألف ليلة وليلة ) أما من حيث الأحداث والسياق فإنها مشدودة الى الواقع / الراهن تسأله وتحثّ عليه .

**حكاية السندباد : السّفرة الثامنة :**

يقول « بوريس انخينباوم » ( 1886 - 1959 ) إن القصة القصيرة يجب أن تنطلق بقوة مثل صاروخ ألقي بقوة ليضرب بحدة ويكل قواه الهدف المنشود . والذي يفهم من هذا القول إن القصة تبدأ في أغلب الأحيان بلحظة تحول عنيف أو تأزم حاد في حياة الشخصية . وقد ساد هذا الرأي منذ الثلاثينيات إلى اليوم ، والطريف عند الدرغوثي هو أن البداية توهم بالإنزياح عن تلك القاعدة ، فقد بدأ السرد بأمر من شهريار : « احكي يا شهرزاد . »

وقد تعودت شهرزاد أن تحكي ، وتعود شهريار ، ونحن معه ، أن نسمعها لكنها هذه المرة تتمرد . فشهريار هو الذي سيروي ، وإن يكون راويا فقط وإنما أيضا شخصية أساسية .

لقد حافظ الدرغوثي على البنية ، لكنه غير الوظائف داخلها . فقصة شهريار وشهرزاد هي القصة الإطارية في ألف ليلة وليلة وهي قائمة على صراع خفي بين رغبتي :

– رغبة في القتل وقد تخمرت في شهريار بعد أن شاهد زوجته تخونه مع عبد أسود .

– ورغبة في الحياة وقد مثلتها شهرزاد وهي التي نذرت نفسها للدفاع عن الوجود بالكلام ، فقد تحول شهريار بسردها من أكل ناهم إلى سامع معتبر وانبجست من جسدها وظائف شتى فهي تمتع وتؤنس وتتعب .

وقد جعل الدرغوثي حوار شهرزاد وشهريار إطارا ليسرد قصته ، فكانت للرحلة عنده نفس الوظيفة التي انعقدت لها في ألف ليلة وليلة وفي حكايات السندباد خاصة ، فهي قناة المعرفة القائمة على الاحتكاك والمعاناة والملاحظة فما كان لسندباد شهرزاد أن يرى ما رآه من عجيب وغريب لو لم يسافر ، لو لم يتخط حدودا جغرافية حضارية بعينها وما كان لسندباد الدرغوثي أن يتحول إلى موسس وأن يدافع عن سياسة صندوق النقد الدولي في البلدان النامية لو لم يسافر .

إن ما سرده السندباد في سفره الثامنة ، قد كان يتنامى ويتناسل من تركيب معتبره مؤكدا ، فقد كرر الدرغوثي : « احكي يا شهرزاد » فكان هذا التركيب كالتلويح الإيقاعية في النص الشعري ، تشد السابق وتبعث فيه الحياة من تحت وتنشئ اللاحق فتجعله انتشارا لها وتحقيقا . وكذا كان شأن السرد في القصة فقد كانت المقاطع مشدودة إلى بعضها بواسطة هذا التركيب وكان السرد يتطور فكلما تكرّر : « احكي يا شهريار » ، أوغل السارد في التعرية ، في تعرية نفسه وتعرية الآخر وتعددت الأحداث وانفتح النص على عوالم شتى : الواقع المعيش ، والعجيب والغريب والغطيع : فالمرأة التي لا يدري كيف تقوده قديما إلى بيتها والتي تخرج من الحمام ملتفة ( كذا ) في منشقة حمراء يقطر الماء من ذقنها ويشرب من فيها خمر أحلى من الخمر سرعان ما تتحول إلى عرق يقول الدرغوثي : « رفعت في وجهي ذيلها تحولت إلى عرق كبير وحركت أمامي ذيلها بشوكته العملاقة » ص 44 .

بهذه الشوكة مات « الجنائي » صديق السارد بعد أن شبعته منه : قالت في نفسها : « حرام أن ياكل النود هذا الجسد قبل أن أشبع منه » ص 44 .

إنها امرأة تقتل كل من شبعته منه ، وإن لم تقتله فإنها تستبدله بأخر ، قالت لزوجها « عم بلكاسم هرم والحديقة في حاجة إلى شاب يعتني بها » ص 45 :

لقد اكتفى السرد بالإشارة إلى جنس هذه الشخصية وإلى إمكان ظهورها في

صور مختلفة وقد حرص السارد على الإيهام بالحياد والإلتزام بوظيفة السرد وما قد يتخلله من وصف بين الحين والآخر ، ولكن مفردات من قبيل " بيرة " و " شوينقوم " تجعلنا نفكر في فضاء حضاري آخر ، رام الدرعوثي التدرج في الكشف عنه ، فقد وردت المفردتان السابقتان في المقطع الأول وورد تركيب " دار السلام " في المقطع الثاني ، في حين ورد تركيب " مغامرات السندباد العربي في بلاد الثلج " في المقطع الرابع .

ورغم أن السندباد قادم من " دار السلام " فإن الجمارك قد قابلوه ببرود شديد ولم يعاملوه معاملة تليق بإنسانيته فقد فتشوا صناديقه ومرروا عليه عصا كهربائية وجيئ له بكلب تشمعه .... ولكن هذا كله يهون أمام المحنة التي تعرض لها السندباد وكشف عنه الحوار الذي جرى بينه وبين المرأة التي رافقها الى المدينة :

— ما اسمك ؟

— سندباد

— لماذا جئت الى هذه البلاد ؟

— للتجارة والاتراق

— هل لديك اقامة ؟

— لا

— اذن سوف تطرد من هنا في اقرب وقت .

— وما العمل حتى لا اطرد ؟

— تتزوجني !

في هذا المقطع يكشف السرد عن اسم المرأة ، انها " ليدا " التي سيصبح السارد تابعاً لها ، فهو قد تزوجها في اللغة فقط ، أما هي فقد تزوجته فعلاً بما يعنيه فعل تزوج في الذاكرة الشعبية لا في المعجم . فقد صار السارد كالثور يأكل اللحم المشوي والمطبوخ والسمك ويسكر ولا عمل له سوى مضاجعة مضيافته العجوز ، بل انه كان مطواعاً الى حد انه قبل الانخراط في لعبة اكبر هي لعبة افلام الجنس والمخدرات وصار شأنه شأن المواد الخام التي تصدرها دار السلام لتصنع في بلاد الثلج ثم تعود انيقة مغرية : " في تلك الليلة شاهدت شريط كاسات مكتوباً عليه بالخط الكبير :

" مغامرات السندباد العربي في بلاد الثلج " ص 50 .

ولم يكن للسندباد وجه واحد في النشاط ، فقد شاعت له " ليدا " أن يصدر حبوب منع الحمل الى البلدان النامية وأن يتوسط في شراعات أسلحة لمكافحة الشغب هناك - أي في البلدان النامية - وفي هذا المستوى تكتمل صورة هذه الشخصية ، ويجوز لنا بالتأويل ان نطلق عليها صفة الخطورة ، وهي خطورة متولدة من حالة الذهول والغفلة التي كانت تعيشها الشخصية لا عن الأنشطة التي كانت تمارسها :

— " ثم افقت ذات يوم وأنا في السجن " ص 52 .

لقد كان السارد يعمه في وعيه الزائف بالآخر ، وكان لابد من عشر سنوات اشغالا شاقة حتى

يكتشف السندباد تفاهة وجوده وقبح صورته فلم يجد إلا القتل وسيلة تقطع به بين منزلتين :  
— منزلة العمى التي كان يعيشها .

— منزلة أخرى رامها لنفسه ، مغايرة للأولى ومختلفة عنها وإن لم يفصح عن تفاصيلها :  
" تحسست جيدها ، وبدأت اضغط قليلا قليلا ، ضغطت أكثر ، ثم تركتها تسقط فوق الأريكة ....  
وخرجت أشم هواء الصباح الجديد " . ص 53.  
لكن متى يكون القتل فاتحة للصباح الجديد ؟

إن المعجم الذي أشرنا إليه قبل قليل ، يوجه القراءة توجيهها مباشرة إلى قضاء بؤرة السرد ، وكان التّجسير مدخلا للإفصاح عن موقف فنحن نزع أن " ليذا " هي رمز لعنف الحضارة الغربية ووجه من وجوهها البشعة ، وما كان لنا أن نكشف هذا الوجه ، لو لم تكن هذه السفرة الثامنة ، فمعلوم أن السندباد في ألف ليلة وليلة لم يرحل إلا سبع مرات ، وإذا كان ، الرقم سبعة رقما سحريا كما تذكر بعض الدراسات ، فإن الدرغوثي يريد أن يخلصنا من وطأة سحره ليعيدنا إلى واقعنا وذواتنا ، وإذا كانت شهرزاد تسرد لشهريار كي ينام ، فإن الدرغوثي يسرد لنا لنستيقظ ، لنفتح عيوننا على المرعب هنا وهناك والآن وفي الماضي ، وما كان لهذا أن يتم ، على هذا النحو من الوضوح لو لم يصل الدرغوثي نصّه بنص ألف ليلة وليلة . فقد تحول هذا النص التراثي بعجبية وغريبة إلى شاهد على فوضى العصر وبشاعة تلك العجوز أساسا . وكان ما كان متخيلا لا حضور له إلا في السرد ولا وظيفة له إلا الإدهاش والارباك قد تحول إلى جزء من الواقع المعيش . وبهنا تتحول " السفرة الثامنة " من نص يسرد حالة فردية ، إلى نص يسرد حالة حضارية ، وتتضاف للنص التراثي ، الذي أطر السرد ، وظيفة الشهادة على الواقع / العصر ، وظيفة أيديولوجية لها وجوه متعددة ، ولعل أهمها : الموقف من الآخر / الغرب . يمكننا أن نقول إن اختيار هذا النمط من الكتابة حيث يستدعي التراث في بعض خصائصه الفنية أو المضمونية أصلا وتقام له علاقة مع الواقع / الراهن قد حقق وظيفتين على الأقل :

— أولهما أن المزاجية بين خصائص قديمة وأخرى حديثة قد أحدثت نوعا من التداخل والتفاوت والتعدد في مستوى البناء وقد أتاح للكاتب هذا أن يجعل فعل القصة فضلا عن الرسالة التي يروم إبلاغها فعلا تحريزيا لا يقبل التراخي أو الذهول خالقارئ يظل متحفزا على امتداد زمن القراءة بعيدا عن إثارة العواطف أو الحماسة التي سرعان ما تخبو . لأن الغاية في القصة هي التحريض على الوعي بعد تعرية الذات الفرد / الجماعة والنظر إلى الماضي والراهن على حدّ السواء نظرة نقدية .

— وثاني الوظيفتين هي أن الكاتب كشف من خلال الوصل الذي أقامه بين قصته والنص التراثي ، عن امتداد لأنماط من السلوك والقيم والوعي القديمة في الحاضر فقد تقدم الزمان في حين أن الأسماء وأشكالها من الوعي وشرورها من القيم هي نفسها ...

# المدينة العتيقة .. برماد الإحتراق

## عبر تقنية : الدّمع الوشمي La pyrogravure

### للرّسام : حسن القيزاني

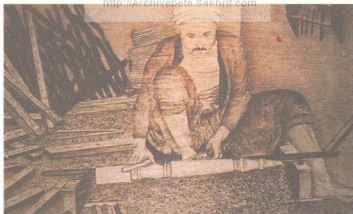
بقلم : لطفي عبي

« من بين كافّة الفنون لم أعرف من هي أكثر مغامرة وأكثر رية  
إذا أكثر نبلا من تلك التي تتاجي النار »

بول فالري Paul Valery

التّقنيات عبر تنوّعاتها تستلّ من الشريط المنظور لقطات نادرة تفوز بالسّبق في إشغال  
المشاهد من تلوينات العين ، وتمنح النّاطر فرصة الإستمتاع بأطروحات مغايرة للون والشكل .  
ولعلّنا نقع في شرك الحيرة والأهول عندما نقف أمام جداريات المغاور التي تعود إلى العصر  
النيوليتي Le Néolithique (العصر الحجري الأخير) وتتفحّص تلك الرّسوم لمشاهد القنص  
على المساحات النّاتئة والأشكال

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



إن تلك الخطوط الحافّة واللامتّصلة تفرّق في لجنة الألوان الثّرائية الدّافئة لتضفي على الكهوف حالة من التّوازن ومسحة طلسميّة غامضة .

إنّ تلك الألوان الكستنائية عبر إنزيحاتها تستحضر في أذهاننا أحوازا ما وراثيّة غير قابلة للإحتراق .

الكستنائي لون هادئ .. عتيق ، له دلالات ميتافيزيقيّة رمزيّة ، حيث يتّصل بعالم السّحر والخرافة ويتشبّث بذاكرتنا الجمعيّة بسطوة الحرف والمقدّس .

تقنيّة الدّمغ الوشمي La Pyrogravure أو الكي على ( الخشب ، الجلد ، العظام والعاج ) لها طقوسها وجماليّتها : إذ تمنحنا متعة الإكتشاف البطيء عبر تعريض الحامل لد حراري بواسطة الدّامغ الكهربائي Le Pyrographe ( المكواة الكهربائيّة ) : عندها تبوح القشرة السطحيّة ببصمات مخدّلة بقوة النّار لترسم إلى الأبد عبر لطخات كستنائية متدرّجة : حساسيّة الفنّان وشاعريته .

### فتوغرافيا النّار :

» قد تغلّح ومضة الفلاش في النقاط الصّورة ، لكنّها لن تغلّح في الإمساك بالشّعلة الحيّة داخل الأصل نفسه ؟ ولأنّه لا يمكن بحال الاعتماد على رؤية برقيّة في التوغّل خلف التّفاصيل النّابضة في لوحة ما ومعرفة خصائص تغردها مع سرّ ترابطها العميم بالشكل كلّ في أن ! لذا يجب أن نسلمّ معا بأنّ الصّورة الوردية لا تفني عن رائحتها ! «

محمّد عبد الرحمان المر

فرشاة من نار تشقّ طريقها وسط دخان الإحتراق لتجعل من رائحة الخشب رفيق العزلة .. عزلة التّشكيل .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

حسن القيزاني يعدّ السّاعات الطّوال خلف محراثه الحارق يتتبّع أرقّ التذكّار لينتهي به الإجهاد إلى رابط عشق أبدي يشدّه بعمله المخاض .  
إنّه يرسم ليتلذّد بلحظات التّشكيل الأولى وتطور الخطوط عبر معاناة البناء والتهديم .. إنّها متعة الإكتشاف بلا ريب .

الفنّان الدامغ Le Pyrograveur يرسم الأشكال مقدّاة براحة الإكتواء إذ يجربّ التّوصل إلى بقع متقاوّة القتامة عبر التّحكّم في فترات التّسليط الحراري وهو بذلك يعيش النّحت لحظة بلحظة حيث يمتزج المنظور بالحسوس .. الضوئي بالمادّي ومن شتّة تتأصّل الصّلّة بين الخشبة والفنّان .. بين العمل المبدع وبين مكابدة الخلق . كما تتشبّث الرّائحة بالذكّريات .

القيزاني فنّان إستعراضي ، يعشق إدهاش الجمهور الواسع وشدّ أنظاره إذ يحاول من نون إعياء أن يبرهن على تفردّه وحرفيته في محاكاة الواقع المنظور عبر إسقاط دقيق لما تلتقطه عدسة المشاهدة .. إنّهُ من نون شك بور تريتيسمت Portraitiste مجيد ، إستطاع أن يصنع لنفسه أسلوبا تشكيليّا متميّزا منطلقا من تجاربيّة شخصيّة حيث يشتغل بالخشبة كحيز تشكيلي مستتبعا المخطّط الآتي :



إنَّه إستثناء جيد .. دفع به الفضول إلى مغامرات طويلة ، لم تنثنها لعبة التَّجربة والفشل : فهو بحق فنان منقل عصاميته بروح التحديثات ليجعل من ملكته صورة محسنة لمسودة المحاولات الكثيرة : فإذا بإبداعاته تدق أجراس الناظرين لتمنحهم فرصة الإستمتاع بلحظات الإبداع والاختلاف .

### تداول الضوء والعممة وغياب اللون :

» الرَّسْم Le Dessin يملأ الجانب المذكَّر للفن واللَّون الجانب المؤنَّث ، يجب على الرَّسْم أن يحافظ على تفوقه على اللَّون ولو حدث خلاف ذلك لصار التَّصوير La Peinture نحو خرابه .

شارل بلون Charles Blanc

تبدلنا الأعمال مع المواجهة الأولى وكأَنَّها قادمة من زمن سحيق .. فالخشب والإحتراق وكلاسيكيَّة الإنجاز عبر المواجهة بين عامل الضوء والظلال وغياب اللون : كلها تحيك مؤامرة الاستثناء والتفرد .

فالقيزاني لم يجد مائتاً من أن يكسّر حاجز الخداع البصري وأن يقف مكان الرَّسام الأكاديمي .. حيث تمكَّن من تفكيك لغز المحاكاة ومضى بتجسيد اللطخة تلوى الأخرى وينشئه الأحوال المضنية بالفراغات .

غياب الألوان لم يحدث خلافاً في توازن اللوحات بل أعطى مساحة من الجدبة على الموضوعات المتداولة بالرَّسْم ... فالقيزاني يجرب دائماً سلب الواقع من تلك المشاهد الصُّدمة المشبعة بالإفصاح المؤثِّر .. إنَّه يحلو له أن ينظر إلى الواقع بعين فاحصة محاولاً المزج بين القبيح والجميل بين السليم والعليل بين المأساة والفرحة .. عزاءه الوحيد أن يسبق الآخرين للصُّورة المطلقة للعفوية .. للومضة الغالطة .

إنَّ تقنية الدَّمع الوشمي لا تترك للفنان مجالاً للخطأ .. فالتَّأر تاكل الخشبية لون رجعة .. لكنَّ الرَّسام يدخل فضاء اللوحة مسكوناً بهاجس الإحتراق .. فإذا به يغادر إنجازاً كمن تخطى حاجز الألهب .

### إحتفالية التَّلافي في المدينة الرَّمز :

» لا يمكننا أن نتخيل فن التصوير L'art de peindre على أنه محاولة لنقل الواقع . فإذا كان كذلك : فسوف لن يتفوق على أيِّ عمل يدوي آخر ، وبالتالي يصبح بإمكان كل النَّاس



القيام به حينئذ يصير المخبول أهم من أي كان ! » **وليام بلاك William Blake**

إن التجارب الأخيرة تحاول أن تعقد قطيعة مع الموضوعات المستهلكة والعودة إلى مشاهد الإلتحام بالمقاهي الشعبية بالمدينة العتيقة مع مطلع هذا القرن . وهي بلا ريب محاولة للرجوع إلى المنابع الأولى والهوية الأصل بعد ضياع طويل من جراء صدمة الحداثة وغربة الدهشة تجاه ما هو آخر .

تبدو هذه المحاولات من خلال تصوير روح الإلتحام الحي وسط مراكز النبض الشعبي : وكثرتها نتاج لرغبة ملحة للهروب إلى فضاءات أكثر بساطة وحميمية .. إذ يشعر الفنان عبر مشاهداته الطويلة نحو الموضوعات الخارجية بأنه أفنى جهده يبحث عن ما هو جميل .. ومغاير : لكنه يكتشف أخيرا أن الأجل هو ما اتصل بالذات المسلوقة وبالحقيقة الباطنية : بذلك الإلتحام الحي الذي يمس حسنا الكلي وتجعلنا نذوب في حمائم من الخلود .. خلود الذات الجامعة .  
إننا لا نشك في براعة القيزاني وحرفيته لكننا نخشي عليه أن يسجن في نقل المشاهد الجاهزة دون إعطاء الفرصة لخيالاته وأحاسيسه الباطنية لإثراء الساحة التشكيلية بما هو إستثناء وجديد .



على أننا نسعد كثيرا عندما تتداول مدينتنا العتيقة بلغة النّار لعلّها تأجج لهيب الحنين فينا .. إلى فضاءاتنا الأولى ونعبر معا إلى الضفة الأخرى .. ضفة الإبداع الحر .



- 1952 - ولد حسن القيزاني بقمفور ( ولاية سليانة )  
 1987 - معرض شخصي بدار الثقافة ببارو  
 1988 - معرض شخصي بدار الثقافة أسد بن الفرات ( بالقيروان )  
 1989 - معرض شخصي بدار الثقافة بن أبي الصيف ( بسليانة )  
 1990 - معرض شخصي بالمركز الثقافي بتاج  
 1992 - معرض شخصي بدار الثقافة بن أبي الصيف بسليانة  
<http://Archivebeta.Sakhrat.com>  
 1994 - معرض شخصي بالدوحة ( قصر )  
 1995 - مكلف بتأطير الملتقى الوطني للكي على الخشب ( سليانة )  
 1996 - معرض شخصي بالقاهرة ( مصر )  
 ثم معرض شخصي بدار الثقافة ببينزرت  
 1997 - معرض جماعي برواق دريبة ( بالمرسى )

#### \* المراجع :

- 1 - HISTOIRE DE L'ART : Herré loilier , Ed ELLIPSES 1995  
 2 - L'Encyclopédie de la décoration : Ed : culture , Art, loisirs:1966  
 3 - Petit larousse : ed : Larousse 1985  
 4 - المنهل : قاموس فرنسي عربي : الدكتور جبور عبد النور : نشر دار الآداب : 1970 .  
 5 - مجلة الوحدة : العدد : 70 ( خاص ) : التأصيل والتحديث في الفنون التشكيلية .

## أغنية للعمر الحزين

شعر : عادل الشهامي

جَدَفَ العَمْرُ

مَضَى

كُلَّ الأَلْحَانِ تَشَكَّلَتْ وَرْدًا

بَعْدَ العِطْرِ لَفَّهُ الغُبَارُ

سَوَّالٌ قَدْ لَا أَتِيهِ

وَيَمِضِي الفَصْلَ فَصْلًا

رُوحَهُ وَشَمَّ النَّشِيدِ

عَمَقَهُ صَوْتُ وَثَارٍ

ARCHIVE \* \* \*

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

جَدَفَ العَمْرُ

مَضَى

أَحْلَامَ مَنْطِقَتِهِ كَجَنَّةِ الضَّوِّ

مَلَامِحَ غَائِبَةٍ كَالِإِشْتِعَالِ فِي شَفَةِ امْرَأَةٍ بِلَا جَسَدٍ ...

الْوَقْتَ عَارٍ مِنْ فَرْحِي

وَالْمَكَانَ رَعِشَةً لِلْإِنْتِظَارِ ...

تُرَى هَلْ كُنْتُ بَرِيئًا لِحِظَةِ الْعَرِيِّ ؟

أُمَ العَمْرِ سَيَّأَتِي

بَعْدَمَا يَمَلَّنَا الْإِنْكَسَارُ ؟

\* \* \*

جَدَّفَ العمر

مضى

الأشياء حولي تشكلت فصلا من دخان الظل في مرفأ التكوين  
والإنغلاق خفقة لاحتضان بقاياي  
لا مطر غير الذي تكوّن منذ اللحظة الحاملة بالأقحوان  
وكل الأغاني التي غزلت صفائرها من لحن الغياب  
باتت سفينة لارتعاش النبض في كلمات بلا أوتار ...  
الإلتواء لا يغري انشراح صورة مبتورة لفتاة أهدرت أنوثة الملح  
وكل ذاكرة أضيق من ذاكرة البحار

فكونوا كما أنتم

بيننا العمر رحلة في مهبّات النشيد ...

لا تنتظروا مني الذبول

لست أنوي الإنتحار

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

\* \* \*

جَدَّفَ العمر

مضى

والضيق واضح

والدمع فاضح

والسواء يشيع جنازة المساء لوجه الإحتمال

يمدّ الإزدحام إلى دمعة من خليط الأمانى

ولا قرار ...

هل أنا موغل في غلياني ؟

أم موغل في الدمار ؟

\* \* \*

جَدَّفَ العمر

مضى

لا لون للدَّمع غير لوني

لا ضوء للروح غير ضوئي

أجدَّفَ ملء أسئلتي

ومن شعري الكون يكتمل

أيتها المرايا التي خطَّت دموع البوح في أركاني

هل يرتقي وهج الإشتعال إلى مسقط دمعي ؟

هل تترجمني صفة العمق ؟

أم أني أوسع من كل اللغات ؟

صفة واحدة لا تليق

لأنني البحارُ

رعدة أخرى فقط

وينهمر الظلُّ غزيرا في ملكون الحصارُ

فهل سيغيبُ أمل الإبتسام ؟

أم ستحلُّ شهوة أخرى للإنتظار ؟

شعر : أميرة الرويقي

انتظرتُ حبيبي تحت سقفِ الشُّوقِ

يومَ اللقاءِ

طَرَقَتْ سَاعَاتُ الْقَلْقِ

كُلَّ أَبْوَابِي.

تَقَاطَرَتْ دَقَّاتُ الْأَرْقِ

فَوْقَ وَسَادَتِي الْحَالِمَةِ

تَصَارَعْتُ مَعَ الصُّمُوتِ

انفَجَرَتْ الْبُكَاءُ .

هَلْ فَجَرٌ بَعْدَ دُجَى ؟

سَأَلْتُ مَرَاتِي هَلْ أَبْدُو جَمِيلَهُ ؟

هَرَعْتُ إِلَى أَهْدَابِي النَّائِمَةِ ..

أَزْحَتُ غُبَارَ الْكَرَى

تَكَحَّلْتُ قُبَيْلَ الرُّحِيلِ إِلَيْكَ

عَقَصْتُ جَدَائِلَ الْعَشْقِ

نَثَرْتُهَا الْيَاسْمِينَ فَوْقَ كَتْفِي

تَعَطَّرْتُ بِالنَّرْجَسِ ...  
حَمَلْتَنِي خُطَوَاتِي الثَّقِيلَةَ ...  
إِلَى أَعْتَابِ الْمَوْعِدِ .  
لَمْ تَأْتِ ..  
لَمْ آتِ .  
كَانَ يَوْمًا مُمَطَّرًا  
كَانَ يَوْمًا مُقْفَرًا  
أَقْفَلْتُ كُلَّ دَكَائِينَ الزُّهُورِ  
قَحَطْتُ حَصَدَ كُلِّ مَوَاسِمِ الْخِيَالِ .  
طَوَانَا طَوْفَانُ الزَّمَانِ  
تَفَيَّأتِ الطَّرِيقَاتُ مَكَانًا  
فَوْقَ ظَهْرِ النَّسِيَّانِ  
تَذَكَّرْتُ أَنَّنِي قَدْ نَسِيتُ  
مِعْطَفِي الْأَسْوَدَ وَحَقِيبَتِي الْخَاوِيَةَ ...  
فِي دَوْلَابِ الْعَصَافِيرِ .

3 أيار 1996

نهر : فتحية نصري

لمتني .. حدّ الضياع  
وتتكررت لمهدي ..  
يا التياح زاده الوجد التياح  
لمتني والذنب ذنبني  
قد عشقت نجم صبح  
أفلا بعد التمتني  
ما دراني أن غدرا من حبيبي  
قد رماني بمهام من يراع  
لا حبيبي كنت مني  
ما تزال ... !  
كنت ضلعا من ضلوعي  
كنت متدبل حرير اللؤلؤني  
ما دراني ... أن سهامي  
من سهامي قد رماني ...  
من تروي قحط الصحاري  
من رواني بالحنين  
يا سهامي ...  
لمتني ... حدّ الجريمة  
لعيون دمرتني  
برموشي ذي اليتيمة  
لا عذولي لا تمنني  
ذاك ليل لا ييوع بالحنين  
ذاك قلبي شارد حدّ الصحاري



## غدا راحلون

بقلم : محبوب الطرابلسي

إِلَآمَ الْبُكَاءُ وَفِيمَا التَّوَجُّعُ  
وَكُلُّ الْأَنْسَامِ غَدَا رَاحِلُونَ  
فَقِيمُ التَّشْكِي وَأَيْنَ التَّأْسَى  
وَذَا الدَّمْعُ يَسْرِي بِكُلِّ الْجَفُونِ  
يَرْوِحُ مَسَاءً وَيَغْدُو صَبَاحُ  
وَالدَّهْرُ فِي حَرْبٍ قَتَلِي فَنُونَ  
وَفِي لَيْلَةٍ غَابَ عَنْهَا الظَّلَامُ  
تَنَاسَى الْكَرَى عَنْ جَفُونِ الْعِيُونِ  
وَبِتُّ أَسْأَلُ فِيهَا النُّجُومَ  
وَقَدْ فَجَّرَ الصَّمْتُ نَبْعَ الشُّجُونِ  
أَيَا طَاوِيَّاتِ الْأَمَانِي الْعَذَابِ  
وَيَا مَنْ يَنَاجِيكَ مَنْ يَعْشَقُونَ  
إِلَيْكَ دَفَاتِرَ نَفْسِي الْكَتُومِ  
تُخْبِرُكَ عَمَّا جَنَّتَهُ السَّنُونُ  
بِحَقِّ ضِيَاكِ وَحُسْنِ بَهَاكِ  
وَعَطْفِ سَمَاكِ بِرَغَمِ الْمُنُونِ  
أَجِيبِي نِدَاءَ شَقِيٍّ سَقُوتِ  
فَقَدْ سَالَ دَمْعُهُ هَتُونًا هَتُونِ  
وَلَا تَبْطِنِي الْمَوْتَ عَنْهُ قَلِيلًا  
فَنُورُكَ فِي الْحُلْكِ عُدُّ جُنُونِ

## الاهداء

[ إلى الشاعر : عبد الوهاب البياتي ]

شعر : عبد المجيد الجراهمي

- حُلْمٌ وشاعرٌ -

حينَ نَحْفَلُ طَرِبًا

تُقَاطِعُنَا الدُّنْيَا بِالْأَحْزَانِ

فَنَضْعُ عَلَى وُجُوهِنَا أَقْنَعَةً

بَعْضُهَا لِلتَّوَاصُلِ

وَأُخْرَى لِلنَّسْيَانِ ،

مَا نَحْنُ فِي الْكَوْنِ إِلَّا ،

كُتُبَانُ مِنَ الْجَمَاجِمِ

وَأَنْقَاضٌ عَلَى أَنْقَاضٍ

أُمِسَتْ يَبَابًا

حُرْقَةً ،

لَوْعَةٍ ،

أَسَى وَحُزْنٌ

وَأَفْرَاحُ كَاذِبَةٌ  
وَحَكْمُ تَرَاوَحُنَا بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْأُخْرَى  
لَوْماً وَعِتَاباً  
لَمْ نَبْكِي حِينَ يَأْتِينَا خَبْرُ النَّاعِي  
أَوْ غَدْرُ الْحَبِيبَةِ  
أَوْ خِيَانَةُ الْوِطَنِ وَالصَّاحِبِ  
لَمْ يَنْهَزِمُ الْعَشَقُ  
إِذَا الْقَلْبُ جَائِعٌ  
فَيَتَمَنَّى لَوْ يَخْلُفُ بِرَغِيفِ خُبْنٍ أَوْ جِرْعَةِ مَاءٍ  
عَلَى أَنْ يَنْظُرَ فِي ذَاتِ بَهِيَةِ الطَّالِعِ  
أَوْ كَيْفَ تَحْلُو الْحَيَاةُ  
لَشَرِيدِ بِلَا وَطَنٍ  
تَتَوَسَّهْ أَقْدَامُ الْمَدُنِ  
تَلْفُظُهُ الْمَقَاهِي وَالشُّوَارِعُ  
عَشْ حَالِماً أَيُّهَا الشَّاعِرُ مِثْلِي  
فَأَنْتَ أَنْتَ عَلَى الرُّغْمِ .. سَعِيدٌ  
مَا دُمْتَ تَبْحَثُ عَنِ الْوِطَنِ الضَّائِعِ .

## آخر الكلمات

شعر : صالح الفضلاوي

.....	كم أشتهي
لن تنتهي	أن تنتهي
لن أعيد الدرب وحدي	أمنيّتي ...
لن تضيع فرحتي ...	أن ترقص
كانت معي ...	على بابها أدمعي
في جيدها أحلى الأمانى	فالعمر لي
كالأغاني	والجرح لي
كالمدى في دمي ،	وأنا ...
وأنا ... كم أشتهي	كم أشتهي
أن أدرك موالها	أن أضيع في سماء أضلعي
كي لا تغني وحدتي	كم أشتهي أن أقول تغيب
قلت لها :	وهي معي
لن تهربي من ضحكتي	كانت معي
فأنت لي	الشمس شمسي ... والهمس همسي
في موسمي	والمساء لا ينتهي
في ظلمتي	القلب قلبي
من عثرتي لن تهربي	والليالي وحدها صانت دمي .



## نداء الموت

بقلم : عبد الباقي الرايسي

عاد عمارة وسط الظلام متثاقلاً ، مبتللاً بجوراءه هموم نهار كامل قضاه في التسكع ، جاب المدينة طولا وعرضا ، توقف أمام كل الدكاكين كمراقب الأسعار ، اعترف له موظفو البلدية بقدرته الفائقة في استظهار أسماء شوارعها وانهجها وازقتها عن ظهر قلب كالحاسوب ... دخل غرفته القصديرية فإذا هي كالغدير ، تسرب إليها الماء من تحت لأنها بلا أسس وزادت ثقب السقف الحالة سوءا وكدرا ، فطفت بعض امتعته الوضيعة فوق الماء وانحل فراشه الذي صنعه من الورق المقوى لصناديق غذائية فأصبح كفتاة النخالة حمدا لله لأنه لا يملك من متاع الدنيا شيئا ثمينا ليحزن من أجله . اعتلى سدة خشبية كان يستعملها للنوم عند الحالات القصوى أو كلما غابت القطط وهجعت عليه الفئران وغزت خرقة المتأكلة من كل الأماكن الفاقدة لأوانها الطبيعية والتي ذاب صوفها وتحول قماشها إلى خيوط نسيج فصارت متعددة الثقب كشبكة صياد ... حاول النوم لكن الارق خانته رغم التعب ، تكور في - قشايته - كالقنفذ ليخفف من وخز البرد اللاسع ، لكن قطرات المطر المتساقطة من ثقب السقف والرياح العاوية من كل صوب بلا استئذان أجبرته على الاستماع إلى سمفونية موسيقية غير محببة إلى نفسه ... لعن الشيطان سرا وعلانية ، استوى مائلا في وقفته وسط الظلام الدامس كعمود هاتك اخذ منه الزمن عتيا ونخره السوس وعشش داخله ... خطا بضعة امتار خارج مسكنه فبدأ شبحا مخيفا ، فرت من أمامه قطط الليل الشاردة مثله والتي قلبت بقايا المزايل رأسا على عقب لعلها تجد ما تسكن به ألم جوعها ، نحت الكلاب خلفه ، أمامه فلم يعبأ بها ولم ينهرها بل اطمأن إليها لتتسبه وحدته وتؤنس في غريته . فقد يفتح باب المسجد فجرا ويأتي المصلون وحدانا وافواجا من كل صوب فيدب الأمل ويبدأ عمارة مرحلة جديدة من مسلسل حياته اليومي ... سلك أنهما ضيقة أحيانا وملتوية أحيانا أخرى ، الا أنها تشترك كلها في ظلمة دامسة والفوانيس البلدية جلها مكسر من طرف الصببية وقد جعلوها اهدافا لمسابقتهم في الرماية إذ كان لا يهدأ لهم بال ولا يعولون إلى منازلهم الا إذا اصابوا منه الكثير وتساقطت الواحدة تلو الأخرى وهوت كالنجوم الثاقبة ...

أصرّ عمارة على المشي نون تحديده اتجاه وعائد المطر المتهاطل نون انقطاع فما كانت تمضي الساعة حتى عمت المياه الشوارع فاستوت الأرصفة مع الطرقات والبطاح مع مأوي السيارات ...

فقد عمارة شيئا من احساسه فإذا جسمه بلا حرارة كغالب الثلج ، لم يبق أمام عينيه الا

خيار الرجوع الى كوخه القصديري . أحسن من أن يتشجع ويواصل نحو المجهول لو تجرّفه المياه  
كاخشاب الحطب خارج المدينة خاصة وأنه طاعن في السن ولم يعد يقوى على المواجهة مهما كان  
ماتأها ...

دخل عمارة مسكنه فلم يجد مكانا صالحا للنوم . جلس على كرسي فاقد لأحد قوائمه ، ظفر  
به منذ عقود خلت وحافظ عليه بعناية فائقة ، كان لا يستعمله إلا إذا جاءه عزيز عليه ، محجب  
إلى نفسه فيزيل من فوق الأبداش ويمسح عنه غبار ثم يقدمه للجلوس ...

نام عمارة على الطوى تعباً ، ميللاً فسمع في منامه مناديا يهتف :

\* هيا الرحيل .. ! هيا الرحيل ... !

فأجاب عمارة مذعورا : بسم الله ... ! بسم الله ... ! من أنت ... ؟ إنس ...

أم جان ... ؟

\* الهاتف : لا بد من الرحيل ... ! لا بد من العودة ... ! فالساعة قادمة ... !

– عمارة : من أين جئت ... ؟ وأين تقصد ... ؟

\* الهاتف جئت من غياهب التاريخ وأقصد نهاية الزمن الأدمي ...

– عمارة : أفصح ... !

\* الهاتف : هيا ... ! ارحل إلى بدايتك .. ! ارحل إلى نهايتك ... !

– عمارة لم أفهم رغم أن لكل رحلة بداية ونهاية ... !

\* هيا الرحيل ... ! هيا الرحيل .. !

وفجأة انقطع صوت الهاتف وبقي عمارة يردد : الرحيل ... ! الرحيل ... !

وبينما هو في – هستيريته – إذ بالأذن ينادي للصلاة فأتاق ، التفت إلى كل الأركان ، أجال  
ببصره من خلال الباب إلى الخارج ، يسمل ، حوقل ، لغن الشيطان ليبعد عنه الشريط الغريب  
الذي كان بطله نون أن يتنهاى له ويون سابق معرفة أو خبرة بعالم المسرح ... خرج شارد الذهن ،  
حائر الأمر ، لم يصدق ما حدث له ولم يجد تفسيراً مقنعاً يبرر به نقاوة حلمه . ويون أن يشعر  
سقطت نعمتان على خدي الشيخ عمارة كانتا كافيتين لفك الرموز الغامضة ، وفي رمش العين  
كان عمارة قد قرر نهاية مصيره . فالهاتف الذي زاره ما هو إلا وليه الصالح عبد القادر  
الجيلاني الذي لم يزر قبره منذ ما يزيد عن سبعة عقود تامة وما قدومه إليه إلا ليسترد حقه  
التمثل في ديك أحمر كانت قد وعدته به أم عمارة لأنه آخر حبة العنقود الوحيدة التي بقيت على  
قيد الحياة من كل أبنائها وبناتها . فبعد موت الأم بقي الدين أمانة في عنقه لذلك بات الرجوع  
إلى نقطة الانطلاق واجبا عليه وليدفع – الوعدة – إلى وليه الصالح ...

لم تبدُ علامات الاستعداد للسفر عند عمارة واضحة ، فهو معدوم لم يملك طوال حياته منقولا  
أو عقارا ... عاش في المدينة عقودا متتالية كمابر سبيل . قضى جانباً من طفولته متعلما لحرف  
بسيطة ، لم يختص في أي واحدة منها لتكون موردا يرتزق منه ، قتل شبابه مغامرا بين الملاهي  
الليلية ، سكيراً بين حاناتها صحبة زمرة سوء ، لم يساير الآية الكريمة فحول نهاره سباتا وليله  
معاشاً . كان عالة على غيره بسبب جبروته وغطرسته ، أدمن على لعب الميسر مع الأشرار ، دخل

السجن أكثر من مرة لأسباب مختلفة ، تحولت أخباره إلى مسلسل يومي لدى الناس . أما كهولته فبقدر ما أرجعته إلى الجادة بقدر ما سرقت منه نضارته وحيويته بقدر ما وهبت وقار خريف العمر انتزعت قوته وأقدامه ... غزا الشيب شعره وضحاها ، هدت أحداث الزمن قوته فتقوس ظهره ليصبح أحذب ، ضعف بصره فإذا غشاوة بيضاء جعلته شبه ضئير ، تاكلت أسنانه الواحدة تلو الأخرى بمفعول المسكرات ونخر السوس بقية أضراس فمه فإذا تكلم ظهرت بقايا الأسنان والأضراس كآثار تروي تاريخا مجيدا ... تغير نطقه لبعض حروف الأبجدية ففقدت كلمات قاموسه كثيرا من معانيها الحقيقية ، تملكت جسده رعشة لها إيقاع خاص يعمل بالتناوب مع دقات قلبه ، نحل جسمه فصار كعصا المكنتسة ... شاخ عمارة وهرم دون أن يشعر ، دون أن يخطط لخاتمة مطافه ، تجاعيد وجهه كخرائط حربية ، بقايا الجدري بادية عليها ، تخال ملامحه غريبالا متقرا ، صدنا ...

ما كادت الأمطار تكف عن النزول وتدب الحياة في المدينة حتى كان عمارة وسط محطة القطارات واقفا وحيدا ، صامتا ، شارد الذهن وبجانبه صرة من البلاستيك تكشف ما بداخلها من أمتعة الوضعية التي لم يتنازل عنها .. أطل القطار يتلوى كالشعبان ويتطاير شررا ، ينث دخانا ، توقف بالمحطة ليسترد أنفاسه قبل أن يواصل رحلة العذاب . فتحت أبوابه للراكبين فتدافعوا بمنالكهم قصد الحصول على أماكن شاغرة ، اختلطت الأجسام وعلا الصياح وتطايرت الحقايب ويرع البعض في القفز عبر النوافذ داخل القطار وتنشطت عملية بيع البيض المسلوق والأنواع المختلفة للسجائر والصحف عبر النوافذ داخل القطار ، أما عمارة فلم يسعفه الحظ وان شئت فقد خانتته قوته ليجد مكانا وسط العرية لو لا تنازل أحدهم عن مقعده لعمارة لنزل هذا الأخير لينتظر سفرة العاشرة صباحا ، استوى عمارة في مكانه ثم التفت من النافذة ليلقي بأخر نظرة على المدينة فربما أن يراها بعد يومه هذا . بدأ له المشيعون على الرصيف يلوحون بمناديل صغيرة إلى أهلهم وأصدقائهم متعنين لهم سفرات ميمونة وعودات محمودة ، أما هو فلم يكثر به أحد ولم يشيعه أهل . عادت به الذكرى إلى عقود خلت فتراء ت له صور الأحباب الذين لازموه طويلا أشباحا باهتة ، جامدة انفخسوا من حوله فبقي لوحده نكرة ...

صفر القطار تصفيرة حزينة انظر لها قلب عمارة وأوما عامل السلك الحديدية بخرقه حمراء شدت إلى عصا قصيرة معلنا عن بداية الرحلة أو قل إنها بداية نهاية عمارة ، وما هي إلا ساعة حتى كان القطار خارج مباني العمران يطوي الأرض طيا معزقا صمعت السهول الحاملة بدوية المزعج مخيفا الحيوانات بصغيره الجنائزي ... ترك عمارة المدينة غير أسف لأنها أخذت منه الجانب الأوفر من حياته دون أن تعطيه شيئا .

حمد الله لخروجه منها حيا يريزق ... وكلما تقدم القطار مسرعا ازداد عمارة فرحا وتسابت دقات قلبه لرؤية أهله ، إنه عاد كالدر إلى معدنه أو كالشاة إلى قطيعها . تخيل الدشرة التي كانت مهدد الأصلي والتي أوتت لحين . خامرته أسئلة عدة ، أيجد البعض من أتراب الصبا فيجدد معهم ألعابا لم يتموها ؟ أم أنهم سبقوه إلى الدار الباقية .. ؟ اختزل القطار السكة اختزالا وعاش عمارة لحظات الاستقبال قبل وصوله فبدت بسمة فريدة على محياه الشاحب وتمتم بكلمات غير

مفهومة كايين في بداية نطقه ...

أحدثت محطات وظهرت قرى ومدن كالفقايح لم يعرفها عمارة من قبل ومدت جسور عصرية لم يتوقعها ، احتار في أمره ، أيعقل أن ينسى عنوان أصله .. ؟ تفرس الوجوه فإذا هي غريبة عنه وبينما هو في حيرة من أمره إذ بمراقب التذاكر يطلّ من آخر العربدة ليؤدي عمله ولما اقترب من عمارة ، أخرج هذا الأخير تذكروته كبقية المسافرين وأراد السؤال عن المسافة التي ما زالت تفصله عن وجهته ، لكن الرجل لم يعمله بل صاح في وجهه : إنك سارق .. ! عيب عليك .. ! كان من المفروض أن تكون لنا جميعا قدوة في الثقة ، لابد من دفع غرامة مالية أنك تجاوزت المسافة المحددة لك بخمس محطات ، لم يتمثل عمارة وأصر عنادا لكنه اقتنع في النهاية لما عرف وأن محطة دشرته قد أصبحت تعرف باسم عصري جديد ، توقف القطار بالمحطة الموالية فنزل عمارة بمساعدة من مراقب التذاكر الذي تفاهل عن أخذ الغرامة لأن الشيخ المسافر لم يعتمد الفش ... أصيب عمارة بخيبة قضت على جانب مهم من غيظته التي رافقته رحلة العودة ولعن الزمن الذي أصبحت فيه حتى أسماء الجماد قابلة للتغيير ومن أجلها نزل متسللا وحل بأرض غير أرضه احتار عمارة في أمره ولم يعرف ماذا يفعل وأي اتجاه يسلك إلا أنه وبعد تعب مضن لجأ إلى مطعم شعبي متبعا رائحة الشواء التي جذبتة ، أكل فشييع وشرب فارتوى ثم دخن سيجارة - بوستة - المحببة إليه فشعر بهدوء في الأعصاب وراحة في البال ، شرب شايًا منعنا فعاودته بسمة مسروقة وتهللت أسارير وجهه فانتشعت سحابة الكآبة التي صاحبتة وعاودته أمل خاله ولي دون رجعة ، أثرها عرف طريق العودة إلى دشرته العصرية فشكر التاليد ودفع بلا حساب بعد أن أخلص في الدعاء له وقصد محطة الجافلات . لم تدم رحلة العودة طويلا حتى كان عمارة غريبا في بطحاء رحبة ، تفرس الوجوه فلم يفرق بابتسامة يقيمة يسكن إليها ، مشى دون هدف متباطئا كيسه البلاستيكي الكل يرمقه بازدياد سأل عن البعض من أثرا به وعائقة الذين ما زالت ذكرياتهم عالقة بذهنه فلم يجد لهم أثرا ، حاول أن يعرف بنفسه عند أهله فأنكروه ظنا منهم وأنه محتال يطالب بنصيب من الارث العائلي ... حاول عمارة جاهدا أن يقنع الجميع بصحة هويته أو أحقيته في الانتساب إليهم فجويه بالصد والكران ونعت بالدخيل ...

قضى قرابة الأسبوع متجولا ، باحثا عن موقع منزل جده الذي ولد به فوجد مكانه بناية عصرية يسكنها أناس لا يعرف أصلهم ولا كيفية استيلائهم على الحوش طلب منهم أن يسمحوا له بالدخول للزيارة فقط فنهروه مهددين برفع أمره إلى القضاء . ليس بالبعيد ، قبالة الحوش العصري أسند عمارة ظهره إلى جذع شجرة زيتون كان قد غرسها مع جده وهو صغير . شعر بأنه ولد من جديد مرة ثانية وإن حياة مغايرة للأولى ، دبت في شرايينه فأسلم جسمه لنوم عميق لم يفق منه إلا بعد أن سرح بحياة أجداده وأبائه الذين أقاموا بهذه الديار وعمرها وأصلحوا ثم انصرفوا في صمت وحل مكانهم جيل جديد لا يعرفه ... ابتعد عمارة قليلا عن الدشرة العصرية فقادته رجلاه إلى الحقول التي كان يرى شويهاته بين تضاريسها الجذباء فتراءت له ذكريات الماضي التاميس عذبة والشقاوة التي عاش أخرج لحظات ضنكها سعادة لا توصف كل خطوة من الأرض الطيبة تروي تاريخا ضائعا وكل شبر من التربة الغبراء له معه طرائف لا تحصى ولا تعد ،



أما كروم التين وأشجار الزيتون المتدلية ثمارا والتي غرسها منذ عقود استقبلته مرفقة اجلالا لمكانته المبهجة عندها اعترافا بنضاله من أجلها ، حدثها ففهمته لغته وتفاعلت معها لما له من فضل على وجودها كائنات حيا يؤدي دوره بكل أنفة وكبرياء ...

فرح عمارة وحمد الله لأن الحاضر نطق بسيرة الماضي رغم تغيير المكان واختلاف الزمان الذي جالت يده وصالت كما شاءت ... حز في نفس عمارة أن يعيش ذليلا فتخلص من مذياع صغير معه مقابل الديك الأحمر الذي عاد من أجله بعد غياب طويل ، ربطه إلى معصمه ثم بدأ يجوب القرية مرددا الآية الكريمة - وتلك الأيام نداولها بين الناس - وما كاد الليل يحط أوزاره حتى كان عمارة بين قبري والديه الذين عرفهما بعلامة مميزة ما زالت قائمة على حالها لم يقض عليها الدهر ولم يبدلها الزمن . قضى عمارة ليلته بين الترحم والبكاء وتلاوة القرآن . استغفر لوالديه ما تقدم وما تأخر من ذنوبهما ثم تقمص دور قائد حربي وخاطب الموتى في مواضيع مختلفة ، اثر ذلك ذبح الديك الأحمر ومن الغد صباحا لاحظ راعي أغنام جسما مكورا وسط المقبرة ، دنا منه فإذا بالشيخ عمارة بلا حراك ، تقدم منه الراعي أكثر وكلمه لكن الرجل كان رقما قد انضاف إلى أعداد الأموات .. سرى خبر الموت في القرية سريان النار في الهشيم وحضر في الحال أعوان الحرس الوطني والأهالي للتأكد ففترأت لهم افتراضات عدة ، متضاربة ويعد التحقيق والبحث أغلق محضر الموت وبين طياته واحدة : انتحر الغريب نتيجة أزمات نفسية متلاحقة يضع حدا لحياته ....

وبينما الجميع في ذهول جنائزي ، وكل واحد يتمتم بقصص الصور خشوعا للموت لا ترحما على الشيخ عمارة إذ يعبد الرحمان الفارس يقبل على صبوة حصانه الأغر ، تفرس الوجوه المشرقة فلم يعثر على جواب ، سأل عن الميت فلم يعرفه . ازداد حيرة وصاح في الجماعة : - انحن في حرب ؟ أين أهل الميت ؟ أين أضيقاؤه ؟

اتدفنوا آدميا باسماله البالية ودون صلاة الجنازة .. ؟ كيف ستوارونه بلا لحد .. ؟ وجم الجميع فكان الطير على رؤوسهم ، ودنا الفارس عبد الرحمان من الميت المكور محاولا أن يمدده ليسهل على الأقل دفنه ، أزال عنه - القشابية - التي غطت نصفه الأعلى وما كاد يفعل حتى أحس بقشعريرة صمغته كتيباز كهربائي وأرجعته إلى الوراء . فرك عينيه كمن يطارد النوم ، قطب حاجبيه ليستحضر ملخص ذكريات غابرة ، تراخى جسمه ثم ما لبث أن استرجع قواه ووقف . مشى وسط الجموع في كل الاتجاهات ، تفرس الوجوه كأنه يراها لأول مرة أو كمن يبحث عن شخص معين ودون أن يشعر عاد ثانية إلى الميت ورفع - القشابية - عنه وأخرج يده اليمنى فإذا هي فاقدة لخنصرها ويتصرها .

ابتعد عبد الرحمان هذه المرة عن الميت جريا كالملسوع أو كمن في ثوبه النار وهو يلطم نفسه نون شفقة ليطفئها ... تعجب الحاضرون من فعل الرجل الرصين وتابعوا أطوار مسرحيته بكل اهتمام ... لم يهدأ عبد الرحمان بل رجع إلى الميت وعمرى عن كتفه الأيسر فإذا رسوم من متشابكة ، خطوطها إلى الزينة أقرب منها إلى القرامة . تمتع عبد الرحمان بعد أن لامس لوحة الوشم كمن يستمتق آثارا فرعونية أو يفكر رموزا لخريطة حربية ، صمت قليلا وهو مطالع

الرأس فعاد به شريط الذكريات عقودا إلى الوراء وتذكر يوم سقوط عمارة في بئر وكيف كسر كتفه الأيسر ... ؟ التقت عبد الرحمان إلى الحشود التي كونت حوله حلقة مغلقة ، متراسمة ، سدت عنه الأفق .

اغرورقت عيناه دموعا احمر وجهه حياء وارتجف جسمه إكراما للروح الطاهرة ثم تلا الآية الكريمة كل نفس ذائقة الموت ... عيس ومسح دموعا حارة بلت شيب لحيته ... تكلم والفصحة تقطع كلامه المسترسل :

.. أيموت صاحب هذه المقبرة ذليلا .. ؟

.. أنسيتم فضل آبائه عليكم .. ؟ ألم تعرفوه .. ؟

.. انه عمارة بن الحاج عمار صاحب الأرض التي تاكلون ثمارها وله عليكم مزايا لا تحصى ولا تعد ... إن زاوية المؤدب عمارة والتي تركها صغاركم مازالت إلى اليوم تحمل اسمه ، كان المرحوم قد بناها صحبة والده من خالص رزقهما وتخرج منها أساتذتكم الأجلاء الذين تتباهون بهم اليوم وما إنني أرى البعض منهم أمامي .. ! عجبا .. ! إنه النكران .. ! إنه الجحود بعينه .. ! ألم تتعلموا ما جزاء الاحسان إلا الاحسان .. ؟ إن مصابكم هذا كادت تبتر يده وهو حديث العهد بالصبي لما شارك مع القذائيين في رجم كمين العدو بقذائف ومن الطاف الله فقد خنصره وينصره فقط ... إن جنازتك التي أريدتم أن تواروها القراب كجيفة الكلاب ، كلكم مسؤولون عنها أمام الله ومدانون لها جميعا أمام ضمائركم المنيعة .. ! اكرموا الشيخ عمارة ليستريح في مثواه الأخير .. ! هيا تفرقوا .. ! هيا كفروا عن خطاياكم .. ! وفي لمح البصر تحولت اللامبالاة إلى شعور بالخزي والندامة ، تبدل المشهد فتسابق الأهالي لإقامة مراسم دفن عمارة ، ومن الغد صباحا أغلقت الدكاكين والمحلات التجارية جدارا على عميد أبناء البلدة الذي لبى الموت وعاد إلى أصله فكان يوما مشهودا وأصبح ضريح الشيخ عمارة يزار باستمرار كبقاقي الأولياء الصالحين ....

# الدين

## بقلم : الأزهر الصخراوي

سافر أبي إلى العمل من أجلنا في تلك السنة التي جاء فيها الصيف قبل الربيع والتي تتالت علينا فيها المصائب فزارنا الجراد ولم يترك للمناجل شيئاً سوى بعض الأشواك الجافة التي استعصت عليه وكان أبي يعود إلى البيت قبيل القيلولة مقطّب الجبين فيرمي بمنجله ويستلقي على الحصير ثم يضطجع كثور فيستحوذ على مساحة هامة من البيت الصغير، وكان كثيراً ما يشتد أمي لما تتألم من رائحة قدميه النتنتين ويقول له وهي تتصنع الشفقة : " سيصيب المرض رجلك سيقطك الوسخ ... " وكنت أنا وعليّ إذا ما مللنا طعم الوجبة المتكوّنة من الخبز والحليب أو الخبز والبصل نقعد منزل جدنا الذي لا يبعد عنا كثيراً فيكرمنا وتحسن إلينا زوجته وتبعث إلى أمي ببعض الخضر والفلل وزيت الزيتون والفلفل الأحمر المرحي ثم تعود أدراجنا إلى البيت .

و ذات يوم كنت جالسة بجانب أمي أعلمها كتابة بعض الأعداد على لوحتي فهي لا تعرف أبسط شيء في الحساب وحتى سنّها لا تعلم من أمره شيئاً وكان عليّ يضرب على طبل صنعه لتوّه، وكان أبي قد أخذ البقرة والحصار إلى العين وإنّ بأمي تقف مذعورة فنظرت إلى حيث تنتظر فإذا الناس يتراكمون إلى منزل جدّي فركضنا دون أن نعرف السبب ولما اقتربنا سمعنا نواحا وجلبة وبخلنا فوجدنا جدّي جثّة هامدة والنسوة من حوله يندبن ويعدّدن ويضربن بأيديهن على أفخاذهنّ فانخرطت أمي في النواح وجعل عليّ يبكي أما أنا فقد بهتُ .

جاء أبي فأحاط به الرجال ورأيت الدموع غزيرة على خديه واستغربت كيف يستطيع الرجل أن يبكي ومن الغد جهزوه للدفن وأخذوا الرجال على أكتافهم إلى القبر وبعد أسبوع جاء رجالان فأخذوا بقورتنا وعجلها وقالوا له بصوت دافئ " بقية الدين حاول أن تدبره بعد الأربعينية " ثم انصرفنا فدخلت أمي إلى اثبيت وجعلت تشهق أما أبي فقد جلس على حجار أمام البيت يفكر ولما أيقن من

أَنَّهُ هَدَاتُ قَالَ لَهَا " سَأَذْهَبُ غِذَا الشَّغْلُ فِي إِحْدَى الْمَدَن ... (وَأِنْ) أَنَا بَقِيتُ هُنَا سَنَمُوتُ جُوعًا وَسَيَحْتَقِرْنِي الْهَاسُ عِنْدَمَا تَكْثُرُ دِيُونِي ... "

- وَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ وَضَعَ بَعْضُ الْأَغْلِيَةِ وَالْمَلَابِسِ فِي كَيْسٍ ثُمَّ جَعَلَ يَتَكَلَّمُ عَلَيَّ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ " سَاعَتُكُمْ عَلَيْكَ فِي غِيَابِي لَا تَزْجِعْ أُمُّكَ وَلَا تُضْرِبْ أُخْتُكَ ... إِنْ شَقَانِي مِنْ أَجْلِكُمْ يَا عَلِي "

انطلق أبي في الصَّبَاح الذي أحتجبت فيه الشمس وعلى ظهره رزمة وكانت أُمِّي في ذلك الحين تحاول مسك دجاجة حنت على بيضة واحدة ثُمَّ شرعت تبني لها ما يشبه العشَ وجعلت تهيئُ تحتها كميَّة من البيض لا تعرفُ عددها ثُمَّ دخلت برأسها في القَرْنَ وكانت الدَّجاجة تصيح بصوت مزعج ومتقطع بعث في قلقي إضافيًا وأنا أَتابع بالنَّظَر أبي الذي كان يمشي في الطَّرِيق الممتدَّ وكأَنَّهُ يمشي إلى الخلف فقد كانت خطاه ثقيلة وصار يتصاغر كلما ابتعد أكثر حتَّى أخفاه الجبل وكنت أَظُنُّ أَنَّ المدينة التي سيقصدها هي هناك وراء ذلك الجبل الشامخ وَلَمَّا يَسُت مِنْ رُؤَيْتِهِ دخلت البيت فوجدت أُمِّي باكية وعندما أَحسَسْتُ بوجودي جذبتني إليها وطمَنتنتني وتباكيتنا طويلاً ...

فرخت بجاجتنا ودأبت أُمِّي على حماية الفراخ التي كبرت مع مرور الأيام فصارت ديكًا ودجاجات ... " اليوم باضت الدَّجاجة التي تركها والدك بيضة ... انظري لقد صار فرخ الدَّجاجة التي تركها والدك بيضة دجاجة . اليوم مات آخر ديك تركه والدك بيضة ... "

وهكذا اختلطت الأمور على أُمِّي ولم تعد تميِّز بين الدَّجَاج الذي تكاثرت أعدادُه وتقاربت أعمارُه إلى أن كبير أخِي وكبرت أنا وصرت أدرس بالمعهد فعلَّمنا أَمَّنَا القِراءة والكتابة والحساب وصرنا نُؤرِّخ جميعًا لهجرته بالميلاد والهجرة ولم يعد أبي إلى حدِّ اليوم من الهجرة .



## وكنّت في الزمن

بقلم : عبد الحفيظ الزواري

وجاشت بنفسي عواطف الحنين إلى زمن مضى . واعتلج فكري بنسمات شوق دفين في قاع الوجدان . وكنّت في ذلك الوقت في دوامة الحيرة أجول بفكري فلا الزمن يشينني بوعيده ولا المكان يمنّني من التنقل في أرجائه . وكانت متعة للتأمل أستيطن خباياها في لحظة الانفراد فأرى الوجود في قلب عجيب وأشاهد الكون وقد تمنع فلم تبد محاسنه للناظرين ، وأنشد الطبيعة وقد رقصت في حلل الحسن وتزوجت من درر الجمال فانتالت عليها بركات بلا حد .

وكنّت في ذلك الزمن أصيخ إلى أنغام عذاب وأسترق نغما رائقا في إيقاع حسن ولحن مزج وصوت شج . ففرق لها قلبي ودمعت لهماستها عينا في فلا الأنغام بقدرة على هجر نفسي ولا الألمان تجري دونما همس في خاطري

وظلّت في ذلك الزمن أبحث عن مكنون الأشياء وأرقل في دنيا الحياة فأجد الإشارات بعيدة القوار وأبحث عن الاستعارات فلا تسعفني النفس وهي في تيه إلا بالعبارات تتدفق في عنقوان الشباب . ولكم أرقني صمت الوجود وهو خيمة الليل والنهار فيتجاوزان في حركة لا تمحي وتتاوب بطيء لا ينجلي .

ولعل صمته أية من آيات عجبه . فقد جاشت أنفاس الوجود ما إن طلعت فيه شمس الحياة فأنارت سبله وشعشت مسالكه فإذا النور كلسان يترقق صفاء ويغدو متلاكنا كصفاء الدمة .

وتأقت نفسي إلى القمر أتملّى جماله وقد كسي آيات الحسن والبهاء ، فإذا به يرقل في محرابه ويتعشق نسج جماله فكلمته فما أثار جوابا فما تقول في نوره وقد أنبعث خيوطا متدفقة وانغرس في الأرض أعمدة راسخة فرعها في السماء يعلو وصداها في البسيطة ينشر .

وأنى للقمر أن يحاورني وهو في برجه يemis في ابتهاج وفرح مستديم . ولقد أجلت فيه بصري وكررت في حسنه نظري ، فبسط لي أسرة وجهه وفلق لي عن حجب سمعه فردد :

من الوجود تعلمت سر الإشراق ومنه تعلقت بحبال البقاء فرضت

بحار الأنوار وخضت مفاتها ، ويكى من فرط شوقه إليّ فلم ينفعه  
الاستعبار واعتذر طويلا عن صمته فلم ينجه الاعتذار بعد أن أفل  
نيره فخبيا في طرفة عين .

وانتقلت إلى الشجرة أكشف سر خلودها وأصفي لحكمها تخبرني عن  
الوجود ، فإذا بها قد عاشرت الدهر لتخبره فما عرفت كنهه . واسترقدته  
فامتنع وغارلته فتمنع وعيل صبرها واشتد ألمها فاضحت في همس تشكو  
جرحها ينزولوعة :

أنا الشجرة الباسقة أحوي الثمار البانعة والأزهار المنوذة ولم أر  
من الدهر سوى صنيع يقشعر له قلبي وقد تغفل مره في صدري .  
وشربت من مائه فما ارتويت واجتهدت في رضاء فما أفلحت .  
فمازالت أرضيه وأصافيه حتى حشرج النهار فأصابني البلى .  
فما مضت برهة إلا والشجرة من العطش ميتة وعن النفس منقطعة .  
فهتف هاتف .

إن القلوب إذا تنافروها مثل الزجاج كسرها لا يجير  
ثم بحثت عن الأرض أتوسدها ولقد نشدتها طويلا حتى وجدتها فكانت  
في أبهى صور الجمال . فساورتني بعذب الكلام فانشرح قلبي وتكررت  
القبطة في نفسي ما إن وطئتها وسمعت منها من العظات ما فتق السمع  
فوصل إلى القلب وخاطبتني في رفق :  
ما قولك في راحة أبدية تنسيك همومك وتبعد عنك الشجن فتغدو بها متسع  
الصيت كثير الذكر وراقني كلامها فوددت منه المزيد فأنبرت تقول :

لقد كوى الجزع قلوب البشر وشقت الفجيمة جيب الثكلى ولكم  
عصفت بكم معشر البشر يد المنون فما أبلت منكم شيئا ولكم  
عبس الدهر في وجوهكم وانتصب الزمان في طريقكم فإذا الأمر  
بالضد وإذا فعله فيكم عين الجد . ولكم غبر دخان الحياة وجه  
العسنا فأخذ جمالها أخذ خلصة وذهب بحسنها سريعا . ولكم  
رغبت نفوسكم إلى معرفة المطلق وتاقت إلى محادثة المقدس فلا  
الأماني جنت ولا الخلود أو الأحدث حقلت .

فهيهات هيهات « أن يدرك الطالع شأو الطليع » . حقيق علي وأنت  
تتوسد ترابي أن لا أقول غير الحق .

وما إن أسفر وجه الصبح حتى وجدت نفسي ترتعد فرائصها من لسعة  
القر ، فعلت إلى الفراش أستريح من عناء التأمل ورددت نفسي أن كف عن  
التجوال وقدك ما أصيب من الحيرة .

وجلست ممتدا على الفراش فإذا بالموذن يرفع عقيرته : الله أكبر .

# الثقافة في لبنان واقعاً ومرتبجاً

بقلم د. نزيه كباره  
(لبنان)



للتقافة معنيان : أولهما متصل بالفرد وهو صورة عنه، والثاني متصل بالمجتمع أو الجماعة البشرية ويكون انعكاساً لها.

فالثقافة بالمعنى الأول ، أي المتصلة بالفرد، فردية ذاتية؛ وهي ملك صاحبها، تنمى بشخصيته تماهياً يصعب معه تمييزه عنها.

وهذه الثقافة يكتسبها الفرد إكتساباً... فهي لا تولد معه... ولكن ما يولد معه هو القدرة على اكتسابها. واكتسابها يتم بعملية متواصلة، تدوم ما دامت الحياة.. وهذه العملية تجري في مختبر الذات الإنسانية ، ويشارك فيها وعي الإنسان من جهة ، وعنصر الزمن من جهة ثانية، وكل ما تتلقفه النفس الإنسانية من مؤثرات خارجية من جهة ثالثة.

من هنا كانت ثقافة الإنسان الفردية نتاج تفاعل هذه العناصر مجتمعة، ومن هنا أيضاً تعريف بعضهم الثقافة بأنها " ما يبقى في نفس الإنسان بعد أن يكون قد نسي كل شيء".

ويحلو لبعضهم كذلك، أن يميز في ثقافة الفرد، بين ما إذا كانت هذه الثقافة عامة، تأخذ من كل فنٍ بطرف، على ما ذهب إليه الجاحظ، وما إذا كانت مهنية متخصصة تهتم بعلم من العلوم أو لون واحد من ألوان المعرفة، على ما بينهما من تداخل وتأثير متبادل وبعد إنساني...

وقulture الفرد تدل عليه، وهي التي تميزه عن غيره وتحدد معالم شخصيته. وهي قيمة يكتسبها الإنسان مع الأيام، ينعكس أثرها في طريقة تفكيره وتعبيره وتصرفه وسلوكه في المجتمع... وهي في التحليل الأخير تلك المعرفة التي تحرث عميقاً في الذات الإنسانية وتُخصّبها، على ما ذكره شاعر الأمان غوته.

أما المعنى الثاني للثقافة المتصل بالجماعة البشرية التي تعيش في بيئة معينة في حقبة تاريخية معينة، فهو المقصود في أدبيات علماء الأنثروبولوجيا: ثقافة مجتمع من المجتمعات هي التي تحدّد للإنسان المنتمي إليها، سلوكه ومواقفه في الحياة، ونظراته إلى الأمور، وطريقة معالجتها، وتخلق عنده نزعة أخلاقية معينة، وذوقاً جمالياً يستسيغ ما لا يستسيغه غيره من الأنواع التي تنتمي إلى ثقافات أخرى.

وهذه الثقافة ملك المجتمع بأسره، وليست ملك أفراد، وهي تنتقل من جيل إلى جيل، وتكون التراث الذي يكتسب به هذا المجتمع هويته.

وإذا كانت ثقافة الفرد لا تُورث، فإن ثقافة المجتمع بخلاف الأولى تُورث. وهذا الموروث من طرائق العيش والأفكار والمبادئ والقيم والعادات والتقاليد والأعراف والمعتقدات الإيمانية والقانون، ومن العقلية والأمزجة والميول... هذا الموروث هو الذي تنتقله الأجيال وتحرص على نقله إلى الأبناء بالتربية وغيرها من وسائل الضبط الاجتماعي.

وتأتي اللغة في طليعة العناصر التي يتألف منها هذا الموروث الثقافي. فاللغة هي وعاء الثقافة وواسطة نقلها من جيل إلى جيل والمعبر عنها بامتياز. وتتمايز الثقافات بالمعنى المجتمعي بتماييز لغاتها وتتعدد بتعددتها. ولا يمكن تصور ثقافة بدون لغة تشكل وعاء هذه الثقافة وأداة التعبير عنها وروحها الملمه.

وان زوال اللغة يؤدي حتماً إلى زوال الثقافة التي تعبر عنها تلك اللغة. والتاريخ مليء بالشواهد على ثقافات زالت من الوجود بسبب زوال اللغات التي عبرت عنها. فمآذا تبقى اليوم من ثقافات الكنعانيين والأراميين والفينيقيين والفراعنة وغيرهم وغيرهم من الشعوب التي بادت، سوى بعض الآثار المكتشفة التي تدل عليهم؟ وماذا تبقى من ثقافة الهنود الحمر في أمريكا بعد أن تعلم هؤلاء الهنود اللغة الانكليزية التي صارت لغة المجتمع الأمريكي الذخيل منه والأصيل؟

وإذا كنا ما نزال اليوم نتحدث عن ثقافة عربية، فلأن هذه الثقافة ما تزال تعبر عنها لغة حية هي اللغة العربية. ولا يمكن اغفال دور القرآن الكريم في حفظ هذه اللغة، ولا دور أدباء النهضة في العصر الحديث ولا سيما أبناء الطائفة المارونية الذين خدموا العربية خدمة جلى بما قدموه للثقافة العربية، عن طريق النقل والتأليف في الكثير من ميادين المعرفة.

وإذا كان اللبنانيون متمايزين في ما بينهم من حيث مستوياتهم الثقافية، شأنهم في ذلك شأن أي أفراد في أي مجتمع آخر، فإن ثقافة المجتمع اللبناني الناطق بالعربية لا تعدو كونها ثقافة عربية، وإن كانت لها خصوصيتها اللبنانية، ولكن هذه الخصوصية لا تجعل منها ثقافة أخرى مغايرة.

وليس صحيحاً أن التمايز الإيماني الديني بين اللبنانيين ينتج عنه تغاير ثقافي: فالمسيحية والإسلام ليسا سوى رافدين من روافد الثقافة العربية في لبنان. هناك تعدد ايديولوجي وليس هناك تعدد ثقافي كما أكد ذلك الأب الدكتور بولس خوري عندما قال :

... "وأما الايديولوجية فلا تعدو أن تكون أحد العناصر التي تشتمل عليها الثقافة... وتتكون الايديولوجية من جملة مواقف تحدد مصلح ذات طليعة اقتصادية أو سياسية، تتخذ



أولاً، ثم يبحثون لها عن مسوغات نظرية. وباختصار نقول إن الايديولوجية تشكل برنامجاً للعمل السياسي.

ويضيف الأب الدكتور بولس خوري قائلاً: "ليس في لبنان سوى ثقافة واحدة مشتركة بين الجماعات المذهبية التي يتרכب من اجتماعها شعبنا وبلادنا وهي الثقافة العربية."

وحول وجود العامية إلى جانب الفصحى يؤكد الأب الدكتور بولس خوري أنه "لا يُعدّ بوجود عربية فصحي وأخرى عامية أو محكية للقول بوجود ثقافتين، لأن اللهجات المتميزة لا تعدو أن تكون تغيرات نشأت عن الأساس المشترك وهو العربية الفصحى".

ويختم الأب الدكتور قوله: "فأين نجد، إذاً، أساساً للقول بوجود تعدد ثقافي عندنا؟ إن في هذا القول تعبيراً يرمي إلى تغليب غير موفق لإرادة التفرقة في المجتمع اللبناني بغية قسمته إلى مجتمعين يفترض أنهما مختلفان اختلافاً جذرياً: مجتمع مسيحي وآخر إسلامي." (من كتاب المؤتمر الوطني، لبنان الثقافة والتغيير، ٦ و ٧ و ٨ أيار ١٩٨٨ ص ٣١٦ وما يليها من منشورات الحركة الثقافية انطلياس).

وبالإضافة إلى إشكالية التعدد الإيديولوجي، وإشكالية الفصحى والعامية، يضيف بعضهم إشكالية أخرى هي كون اللغة العربية غير قادرة على مجازاة العلوم العصرية، وما ينطوي عليه هذا النظر من خطر على ثقافتنا ولغتنا العربية.

ومع أن تعلم لغة أجنبية أو أكثر وإتقانها مطلب لا يجادل فيه أحد، إلا أن إشارة هذه الإشكالية تنطوي على تجنب على اللغة العربية بالنظر إلى قدرة هذه اللغة وطواعيتها لأن تكون لغة الحضارة الراحنة، بما تمتاز به من خصائص كالاشتقاق والنحت وما إليهما. فقد أثبتت هذه اللغة قدرتها على أن تكون لغة التدريس في مرحلة التعليم الجامعي لكثير من المواد كالحقوق والعلوم السياسية والإدارية وعلم النفس والفلسفة وعلوم التربية والبيداغوجيا والعلوم الانسانية بعامة؛ وإذا كان هناك من تقصير في غير ذلك من علوم ولا سيما العلوم البحتة فالمسؤولية فيه تقع على الأساتذة الجامعيين وعلى مراكز البحوث والمجامع اللغوية.

إن التماهي بين اللغة والثقافة يحملنا على التأكيد على ضرورة العناية باللغة العربية واغنائها واستيلادها مصطلحات جديدة، وتعريب المصطلحات الأجنبية، ووضع مصطلحات جديدة للمفردات العلمية الحديثة وعلى التأليف في اللغة الأم... وهي خطة سلكها العرب يوم احتكوا بغيرهم من الشعوب ونقلوا عنهم العلوم والفلسفات بداية، ثم كان لهم نتاجهم الخاص فيها، وهو النتاج الذي بوأهم عرش الثقافة العالمية في نهضتهم الأولى. وبقدر ما يهتم العرب

بلغتهم ويطورونها لتكون لغة العصر ، يحافظون على ثقافتهم وهويتهم ووجودهم الحي والفاعل بين الأمم والشعوب.

وينبغي أن نؤكد هنا أن الثقافة بالمعنى الثاني أي ثقافة المجتمع والحضارة ليستا شيئاً واحداً. الثقافة سبب الحضارة نتيجة. الثقافة هي الروح الدافع والمحرك إلى بناء الحضارة، والحضارة هي التجسيد الفكري والفني والمعماري للثقافة. ولولا ثقافة المجتمع لما كانت هناك حضارة.

على أنه لا بد من القول بأن الثقافة بالمعنى الأول أي تلك التي يكتسبها الفرد، والثقافة بالمعنى الثاني أي تلك التي تعبر عن ذاتية المجتمع ليستا مستقلتين الواحدة عن الأخرى تعمل كل منهما في اتجاه؛ بل هما متفاعلتان تؤثر أحدهما في الأخرى. فالثقافة الفردية تساهم إلى حد بعيد في تكوينها ثقافة المجتمع، وهذه تغذيها وتخصبها ثقافة الفرد.

وفي رأيي أن معيار التقدم في المجتمع، أي مجتمع، كامن في مدى تأثير ثقافة الفرد في ثقافة هذا المجتمع. لأن المجتمع الذي تنحصر ثقافة أفراده في حدود ثقافة مجتمعهم يكون جامداً غير متحرك ومنغلقاً على نفسه غير منفتح. وكلما استطاع الأفراد بثقافتهم أن يدفعوا ثقافة مجتمعهم في طريق الاتساع والشمول والعمق ، كلما كان مجتمعهم قادراً على الحياة وقابلاً للمشاركة في الحضارة. إن حالة الجمود التي تشكو منها بعض المجتمعات ناجمة عن عدم قدرة الثقافة الفردية على تمزيق الأطر التي تحد ثقافة المجتمع، ومن ثمة ثوافرت هذه الثقافة الفردية القادرة تحطمت قيود الجمود وانطلق المجتمع بعد ركود.

انتقل بعد هذه المقدمة إلى الكلام على ثقافتنا في واقعها محاولاً الوقوف على خصائصها متفلاً بعد ذلك إلى الكلام على ثقافتنا في مرتجأها.

### **الثقافة في لبنان واقعاً :**

#### **أولاً - ثقافة الفرد اللبناني في واقعها :**

اللبناني متعلم، متنوع الاهتمامات يحب أن يعرف الشيء الكثير عما يدور في مجتمعه وحوله في العالم الأكبر. يختزن معلوماته ليثرثر بها. وقلماً أعمل فيها فكره وحلها ووردها إلى أسبابها وعللها. تعرف ذلك من قراءته الصحف، فهو يكاد لا يترك فيها باباً إلا قرأه. فهو بسبب ذلك يمتاز بثقافة واسعة ولكن سطحية ( مع التجوز باستعمال كلمة ثقافة هنا).

واللبناني ولوع بالمظاهر، يبدو ذلك في عنايته الفائقة بهندامه ولباسه وفي تعلقه بالجاه والمناصب. وفي رغبته في حيازة الشهادات العلمية التي لا تعنيه إلا بمقدار ما تضفي عليه من سمة العلم وتجلّهُ في أعين الناس، لا بمقدار ما تفرغ في شخصيته من غنى وتكسبه من ثقافة.

واللبناني مادي في تفكيره، ومن مظاهر هذه النزعة أنه يختار التخصص الذي يدر عليه ربحاً أكثر من غيره، بقلع النظر عن مؤهلاته ومواهبه.

اللبناني إجمالاً لا ينتقف ولا يعمق معرفته وإنما يتسلى. ولذلك نرى كثيراً من الجامعيين ينقطعون بعد تخرجهم عن استكمال تحصيلهم واغناء ثقافتهم، ويكتفون بقراءة الصحف والمجلات أو القصص قتلاً للوقت وملأاً للفراغ، لا بقصد الاستفادة والانتقف المنهجي.

ولو جئنا نعال هذه الظاهرة التي أحب بعضهم أن يسموها اللامبالاة الثقافية لوجدنا أن لها أسبابها النفسية والتربوية والاجتماعية.

واللامبالاة الثقافية التي نقصدها هنا هي التي نجدها عند المتعلمين الذين حصلوا على درجات علمية ثانوية أو جامعية ووقفوا عندها دون أن يستكملوا تحصيلهم وثقافتهم.

أما الأسباب النفسية لهذه الظاهرة ظاهرة اللامبالاة الثقافية فمردها إلى الأمور التالية :

١- شعور المتعلم بالثقافة والضيق واللاجئ في عالم غريب مضطرب متناقض تكاد تتعدم فيه القيم الانسانية ويسود فيه الظلم والاضطهاد.

<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

٢- شعوره بالقلق على حياته ومستقبله من جراء التطور الهائل في ميدان العلوم والتكنولوجيا وثورة المعلومات.

٣- عدم ايمانه بشخصه وبالذور الذي يمكن أن ينهض به في المجتمع.

٤- سيطرة الروح السلبية على كثير من تصرفاته ومواقفه، هذه الروح التي يعاني منها الشرق إجمالاً والتي هي وليدة أجيال من التربية التقليدية .

٥- الايمان بنظرية القضاء والقدر. ولا يخفى ما يتركه الايمان بها في النفوس من روح اتكالية متقاعسة غير طموح.

وأما العوامل التربوية للامبالاة الثقافية عند متعلمينا فتظهر في الأمور التالية :

١- عقم برامجنا التعليمية التي تشكو من انعدام التنويع تبعاً لاستعدادات الأفراد وكفاءاتهم وأوضاعهم واحتياجاتهم.

٢- فساد أساليب التعليم التي تهتم بالشهادة على حساب الثقافة الصحيحة من غير أن تعنى بتكوين الطالب على التفكير والبحث والملاحظة والاستنتاج.

٣- عدم توفر الظروف التربوية الملائمة من مدارس صالحة ومعلمين أكفاء إلا في النادرة.

٤- انعدام الوعي التربوي الصحيح لدى الأهلين.

وأما العوامل الاجتماعية التي تقضي إلى اللامبالاة الثقافية عند المتعلمين فمردها إلى الأمور التالية :

١- اهمال الدولة للشؤون الثقافية كانشاء المسارح والمعارض والمتاحف ورعاية الفنون وتشجيع المواهب والكفاءات في مختلف الحقول العلمية والفنية.

٢- عدم تقدير الكفاءة والنبوغ في مجتمع يفكر إلى العدالة والمساواة ويشكو من تدخل المتنذرين والمتسلطين وهمتهم على شؤون الدولة.

٣- قصور متعلمينا ومتتورينا عن المساهمة في العمل التنقيفي الاجتماعي، وتقااس النوادي والجمعيات والهيئات ذات الطابع الثقافي عن أداء مهمتها في هذا المجال.

وغني عن البيان أنه لا يمكن الفصل بين العوامل النفسية والتربوية والاجتماعية التي تقضي إلى اللامبالاة الثقافية عند المتعلمين لأنها متداخلة يؤثر بعضها في بعض.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ثانياً - ثقافة المجتمع اللبناني في واقعها :

تحدثنا عن ثقافة الفرد اللبناني في واقعها وذكرنا العوامل التي تحول بين المتعلم وبين استكمال ثقافته. ونحدث الآن عن ثقافة المجتمع اللبناني التي هي صورة عنه والتي هي المحيط الذي تتشكل فيه نفسيات الأفراد وشخصياتهم، والتراث الذي يطبع المجتمع بطابعه ويصهره في بوتقته ويعبر عن ذاتيته.

ثقافة المجتمع اللبناني مزيج من ثقافات مختلفة أبرزها الثقافة العربية الإسلامية والمسيحية والثقافة المتوسطية والثقافة الانسانية، وان كان الجانب العربي فيها هو الطاغي. هذا المزيج هو الذي هيا اللبنانيين قبل غيرهم من العرب لأن يكونوا صلة الوصل بين الثقافة الغربية في العصر الحديث والشعوب العربية. وهو الذي هيا لهم قابلية الامتزاج بغيرهم من الشعوب. وثقافة المجتمع اللبناني منفتحة غير مغلقة. ويتجلى هذا في رغبة اللبنانيين في الانفتاح على العالم، هذا الانفتاح الذي من نتائجه تلك العلاقات الاقتصادية والتجارية التي يعقدها ويعمل على توثيقها مع بلدان العالم في مختلف القارات.

بعد أن عرضنا للثقافة في لبنان على الصعيدين الفردي والاجتماعي وبيّنا خصائص كل منهما. نأتي إلى بحث هذه الثقافة في مرتجأها ، محاولين رسم صورة واضحة لها منتقلين بعدها إلى ذكر الخطوات والوسائل الكفيلة في رأينا بتحقيق تينك الثقافتين حسبما نرجوه لهما.

### أولاً - ثقافة الفرد اللبناني في مرتجأها :

لا يمكن في حال من الأحوال رسم صورة للثقافة التي نريد أن يتحلى بها اللبناني من غير أن نأخذ بعين الاعتبار معطيات العصر الذي نعيش فيه. فعصرنا هو عصر العلم، عصر الذرة والصواريخ ، عصر المنجزات العلمية الخارقة، عصر الشعوب، عصر تقرير المصير، عصر المكتسبات الرائعة على صعيد العدالة الاجتماعية، عصر التقاء النظم والعقائد والفلسفات، عصر غزو الفضاء، عصر يسود فيه من يسود بالعلم والثقافة.

وفي رأينا ، أن لا قيمة لأية ثقافة نتلق بها أجيالنا أو ندعهم إلى الأخذ بأسبابها والتعلق بأهدها إذا لم تستهدف تلك الثقافة تحقيق الأمور التالية التي بها تتحقق الأهلية للحياة والبقاء والعطاء في العصر الذي رسمنا صورته: وهذه الأمور هي:

- ١- مساعدة اللبناني على اكتشاف نفسه وتحقيق ذاته واستكمال عناصر شخصيته.
- ٢- مساعدته على الشعور بقيمته كإنسان له مطلق الحق في أن يحيا حراً عزيزاً كريماً وأن يعمل ويكسب يشرف في ظل القانون المبني على العدالة.
- ٣- تعويده على التفكير وأعمال العقل وتجنب الانفعالات العاطفية.
- ٤- مساعدته على تذوق الجمال في الطبيعة وفي الخلق وفي الآثار الفنية على اختلافها.
- ٥- مساعدته على وعي واجباته وحقوقه فيسعى إلى تأدية الأولى وتحقيق الثانية.
- ٦- مساعدته على التحسن بالمسؤولية : مسؤوليته تجاه نفسه وتجاه عائلته وتجاه مجتمعه وتجاه الانسانية.
- ٧- توسيع أفقه الانساني واشعاره بالاخوة الانسانية التي لا تميز بين الاديان والاعراق والاجناس.
- ٨- تأصيل تعلقه بالقيم السامية والمثل العليا: كالكرامة والحرية والديموقراطية والعدالة والمساواة.
- ٩- غرس الروح المدنية فيه التي تساعد على أن يكون مواطناً صالحاً.

١٠- تعزيز ثقته بنفسه وبأمنته، وبقدرته وقدرته أمته على العطاء والمشاركة في الحضارة الإنسانية.

١١- غرس الروح العلمية والتفكير الموضوعي فيه، وتوضيح الرؤية أمامه ليتبصر الطريق إلى المستقبل.

١٢- تعزيز إيمانه بالله، ذلك الإيمان الذي ينعكس في أعماله وتصرفاته ومواقفه ويخفف من شعوره بالقلق الذي يساوره.

١٣- فتح نوافذ قلبه لتلهم المحبة والألفة والتسامح.

وفي ظني أن ثقافة يمثل هذا المستوى قيمة بأن تهب اللبناني القدرة على الحياة والأهلية للبقاء وفي عصر لا حياة فيه إلا للمتفوقين .

### ثانياً - ثقافة المجتمع اللبناني في مرتجأها:

إذا كانت ثقافة المجتمع هي مجموعة القيم والمثل التي تشكل التراث الذي يميز مجتمعاً عن آخر وحصيلة القوى المحركة التي تدفع هذا المجتمع إلى التعبير عن ذاتيته وأصالته، وتمنحه القدرة على الخلق والابداع واحتضان الحضارة، فإن هذه الثقافة ينبغي أن تكون متحركة غير جامدة متطورة غير راكدة، منفتحة غير منغلقة، أصيلة غير مقلدة واحدة غير متسقة، حتى يتاح لها أن تتفاعل وأن تعطي وأن تطل على الإنسانية بانفتاح رحب سمح لا يعرف حدوداً ولا سدوداً. وبمعبر آخر فإن ثقافة المجتمع اللبناني ينبغي أن تتخلص من كل عوائق الانغلاق التي قد يصطدم بها الفرد اللبناني، وأن تكون بالتالي الجو الملائم لتفتح شخصيته واعتنائها. وفي رأبي أن ثقافة المجتمع اللبناني، لا تصير بهذا المستوى - أي حاضرة للحضارة - إلا إذا تطورت. وتطورها يكون نتيجة فعل إيمان: إيمان بالقيم التالية :

١- أن الإنسان أكبر رأس مال.

٢- أن حق المجتمع على المواطن حق مقدس.

٣- أن للثروة وظيفتها الاجتماعية.

٤- أن المحبة أساس البناء الاجتماعي والتسامح وسيلة التفاهم والتعاون.

٥- أن الدين ولاء للجوهر والتطيف ولا للمظهر، لا طائفية ولا تعصب.

٦- أن المواطن الصالح أنفع الناس لوطنه وأمنته، لا فضل لمسيحي على مسلم ولا لمسلم على مسيحي إلا بمقدار ما يقدم للوطن من خدمات ويذله من تضحيات .

٧- ان العدالة الاجتماعية صمام الأمان لبقاء الكيان، أي كيان.

٨- أن العلم طريق العودة إلى المشاركة في بناء الحضارة.

٩- ان الأديان مناهج إلى ما يستطاع من الكمال، فإذا تحولت عن غايتها أصبحت من عوائق الانطلاق.

١٠- ان العودة إلى تراثنا الحضاري دون ترمت ولا انغلاق نقطة الانطلاق في مسيرتنا إلى بناء الحضارة.

١١- ان التفاعل الحضاري والثقافي مع الشعوب الأخرى حتمية يفرضها منطق الحياة والتطور. وأن لا خوف من هذا التفاعل على حضارتنا وثقافتنا إذا كانت هذه أصيلة منيعة.

١٢- أن العناية بالفنون والآثار الجميلة والروائع العالمية وتذوقها فيه اشياء لشخصيتنا وتخصيب لثقافتنا الفردية.

١٣- ان البقاء في هذا العالم للأصلح.

ولكن كيف يمكن أن تتحقق بهذا المستوى الثقافتان اللتان تحدثنا عنهما: ثقافة الفرد وثقافة المجتمع؟

يقول المثل الصيني: إذا أردت أن تزرع لسنة فازرع قمحاً، وإذا أردت أن تزرع لعشر سنوات فازرع شجرة، وإذا أردت أن تزرع لمئة سنة فازرع الأئمة. ونحن عندما نتحدث عن الثقافة في مرتجأها، إنما نريد بذلك أن نزرع لمئة سنة على ما ذهب إليه المثل الصيني. وزراعة الأشخاص هنا هي تربيته، هي إعدادهم للحياة، ليكونوا الطليعة القيادية الواعية، هي تشوف المستقبل من خلالهم، هي وضع اللبنة التي عليها وعليها وحدها يرتفع البناء سامقاً متشامخاً.

وليست زراعة الأشخاص بالمعنى الذي ذهب إليه المثل الصيني بالعمل السهل أو الهين، بل هي في يقيني عمل ضخم ضخم لأنهما الأساس، وهل يرتفع بناء بلا أساس؟ وتربية الأشخاص المؤهلين لقيادة الأمة وتسلم مقاديرها ليست عمل فرد واحد أو مؤسسة واحدة. وإنما هي عمل جماعي تشترك فيه البيت والمدرسة ومؤسسات المجتمع الأهلي.

## أولاً - البيت وتربية الأشخاص :

البيت اللبناني صورة عن المجتمع اللبناني يشكو ضحالة الثقافة في الغالب، ويفتقر إلى المعرفة الصحيحة في حقل تربية الأطفال، ويصرف همه ونشاطه اجمالاً في أمور تتأى عن اهتمامات الشباب فضلاً عن الأطفال . وهذا مايفسر إلى حد بعيد نفور الأبناء من الجو البيتي لأنهم لا يجدون فيه ما يملأ فراغهم أو يساعدهم على فهم أنفسهم وفهم الحياة. ولا نغالي إذا قلنا أن بعض شبابنا الذين أتيح لهم أن يأخذوا بأهذاب الثقافة بقدر ما سمحت لهم ظروفهم ، علاقاتهم مازومة بأبائهم الذين هم في الغالب قوم بسطاء سذج غير متعلمين . وغني عن البيان أن البيت الذي بهذا المستوى يكون أثره في تثقيف الأبناء ومساعدتهم على تحقيق ذواتهم واستكمال شخصياتهم ضئيلاً إن لم يكن معدوماً.

على أنه مهما يكن من أمر فلا بد لي هنا من توجيه أسمى آيات الاعجاب والتقدير للأباء الذين حرموا نعمة العلم والثقافة والذين يضحون بكل شيء في سبيل اسعاد أبنائهم وتأمين احتياجات تحصيلهم العلمي لأنهم أدركوا أن المستقبل للأفضل والأقوى والأفضل والأقوى هو المتعلم المثقف.

إن البيت الذي حرم نعمة العلم والثقافة والذي لا يمكنه أن ينهض بدور إيجابي في تثقيف أبنائه. هل تتركه بطوي أيامه ولياليه على قصوره وتقصيره؟ هنا يبرز دور المدرسة ودور المجتمع ودور الدولة.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

فالمدرسة بالمفهوم الحديث لم يعد عملها قاصراً فقط على تنشئة الأطفال وتربيتهم وإعدادهم للحياة مواطنين صالحين بل ان من أول واجباتها أن تقدم للوسط الذي تكون فيه الخدمات التي تقدر على تأديتها. ومن أولى هذه الخدمات مساعدة الأهل في فهم ابنائهم وتوجيههم وإرشادهم، وذلك عن طريق المحاضرات والأحاديث والندوات التوجيهية التي يدعون إلى استماعها...

## ثانياً - المدرسة وتربية الأشخاص :

من النواقل القول بأن دور المدرسة في تربية الأشخاص يأتي في الطليعة وأنه الأساس. ولكن السؤال هو : هل مدرستنا الرسمية والخاصة في المستوى الذي يضمن تحقيق الثقافة اللبنانية في مرتجأها ؟



الواقع المؤسف أن لا . وعندما أقول المدرسة فإنما أعني بذلك المدرسة بناءً وموقعاً وتجهيزاً وروحاً وإدارة وبرنامجاً وطريقةً وهيئةً تعليمية. والمشكلة ليست في المدرسة وإنما هي في السياسة التربوية كلها؛ لأن المدرسة بكل محتوياتها ليست إلا انعكاساً لهذه السياسة.

لن أتحدث عما تعانيه مدرستنا وما تشكو منه فهو ظاهر للعيان لا يحتاج إلى كبير تأمل أو تفكير، وإنما سأقصر همي على التقدم ببعض المقترحات عليها تلقى بعض الأضواء على شؤون التربية في لبنان وشجونها.

#### اقترح الأمور التالية :

١- وضع سياسة تربوية على أسس علمية وتربوية تتفق مع مطالب اللبنانيين وتطوّلهم نحو مستقبل أفضل وتساهم في خلق الجيل المثقف الواعي القادر على تحمل المسؤوليات وبناء دولة الاستقلال العصرية والمشاركة في بناء الحضارة.

٢- نسف المناهج التعليمية الراهنة وإعداد مناهج تعليمية حديثة تتسمج مع تطورات الحياة والثقافة الإنسانية والعلوم والتكنولوجيا ، مع مراعاة احتياجات المناطق.

٣- بناء مدارس حديثة تراعى فيها الشروط التربوية والصحية التي تساعد على التعليم والتربية وتجهيزها بالملاعب والمختبرات والوسائل السمعية والبصرية.

٤- إعداد المعلمين المثقفين الأكفاء ورفع مستواهم الفكري والمعنوي.

٥- استخدام الطرق التربوية الحديثة التي تترك للمطالب المجال لتكوين شخصيته وتنقيف نفسه وتنقيح طاقاته ومؤهلاته، والتي تعلمه التفكير والبحث والاستقصاء والاستنتاج.

٦- إشراكه في تحمل المسؤولية والاحساس بروح الجماعة والفريق عن طريق حمله على الاشتراك في الجمعيات الثقافية والرياضية.

٧- تنقيفه جمالياً، وذلك بالأخذ بيده للإحساس بالجمال وتلمس هينماته في الطبيعة والناس والآثار الفنية والروائع العالمية.

٨- غرس روح التسامح والمحبة والتعاون والألفة للتذوب بذلك الترسبات الطائفية التي تعاني منها .

٩- توحيد الكتاب المدرسي في المواد الاجتماعية لأن توحيدّه يساعد على توحيد الثقافة.

١٠- إشراف الدولة اشرافاً فعلياً على المؤسسات التعليمية الخاصة لجهة البرامج والكتب وطرق التدريس.

## مؤسسات المجتمع الأهلي وتربية الأشخاص :

لمؤسسات المجتمع الأهلي من جمعيات ونقابات وأندية وروابط ... دور بارز في حقل تربية الأشخاص وتثقيفهم. ونحمد الله على أن هذه المؤسسات قد أخذت في الآونة الأخيرة تنشط بعد خمول وتحرك بعد جمود لتضطلع بأعباء رسالتها التوجيهية التثقيفية القيادية في مجتمع فسدت أكثر شؤونه... على أنها ما تزال في بداية الطريق وهي تحتاج إلى التشجيع المادي والمعنوي.

ولا بد من دعوة شبابنا المتعلم المتثقف إلى أن ينفض عنه غبار الخمول والتواكل والتخاذل ، لينهض متعاوناً متآزرراً بواجب المساهمة في التوعية الاجتماعية التي هي نقطة الانطلاق في البناء الاجتماعي... والى وعي مسؤولياته وحمل رسالته. فالامكانيات متوفرة والحمدلله ، وهي متنوعة. وعدد المتعلمين من أصحاب الاختصاص في ازدياد مطرد والشكوى من سوء الأوضاع والتخلف عامة، فليس ما يمنع إذن التقاء الإرادات الخيرة التي تعرف ما تريد وتعمل على تحقيقه... إنه واجب الطليعة التي يرتبط مصير الوطن ومستقبله، تقدمه وازدهاره، بقدر ما تبذل وتعطي.

## التربية والدولة :

كانت الدولة قديماً تعنى بتوفير الأمن والاستقرار ، والدفاع عن حدود الوطن. وكانت تكتفي بهذه المهمة. ولذلك أطلق عليها اسم الدولة الدركسي L'Etat Gendarme . أما اليوم فإن اهتمامات الدولة في ازدياد وتوسع. فلقد راحت تعنى بمرافق الحياة المختلفة وفي طليعتها التربية والتعليم . ولذلك تدعى بالدولة العناية L'Etat providence.

ولما كانت التربية في أساس الثقافة، أو بتعبير آخر هي المؤدية إليها،

ولما كانت ثقافة الأفراد تتعكس على ثقافة المجتمع وبالتالي تحدد اتجاهه وترسم طريقه ، كان من أول واجبات الدولة أن تعنى بالتعليم والتربية وبالتالي بالثقافة بمعنيها وهذا لا يتحقق - في رأيي - إلا بالأمور التالية :

١- تأمين التعليم الابتدائي المجاني للجميع.

٢- تعزيز التعليم الثانوي وذلك بفتح ثانويات جديدة وتجهيزها وفق مقتضيات التربية الحديثة وأساليبها.

٣- تشجيع الطلاب على الانتساب إلى دور المعلمين والمعلمات، وذلك برفع قيمة المساعدة المالية، وتعديل برامج التعليم فيها أخذة بعين الاعتبار التقدم العلمي والثقافي والتكنولوجي وكذلك احتياجات المناطق.

٤- تعزيز التعليم الجامعي وتطوير الجامعة اللبنانية بفتح كليات جديدة فيها لتدريس العلوم الحديثة التي يحتاج إليها لبنان في نهضته وبناء دولة الاستقلال.

٥- العناية بالشؤون الثقافية الأخرى، وذلك بتشجيع الأنشطة الفنية والثقافية وإنشاء المسارح وإقامة المعارض وتطوير البرامج الإذاعية والتلفزيونية لحملها على زيادة اهتمامها بالشؤون الثقافية والتربوية، ومساعدة الأندية والجمعيات ذات الطابع الاجتماعي والثقافي.

٦- توطيد العلاقات الثقافية مع البلدان المتطورة.

٧- الاستفادة من برامج منظمة اليونسكو وأنشطتها المختلفة ولاسيما في محور الأمية.

لقد قلت في معرض كلامي على كيفية تحقيق ثقافة الفرد اللبناني وثقافة المجتمع اللبناني في مرتجاهما، قلت بأن هذا التحقيق عمل ضخم يستلزم تدخل المدرسة والبيت ومؤسسات المجتمع الأهلي والدولة. وأضيف هنا قائلاً بأن هذا العمل الضخم ينبغي أن تضع قواعده وأصوله سياسة عامة مدروسة ومرسومة تخطط للبيت عمله والمدرسة عملها والمجتمع عمله وللدولة عملها بحيث يكون نشاط كل منها متسجماً مع الآخر متناغماً معه في وحدة لا اضطراب فيها. وهذا التناغم ضروري حتى يتكامل البناء الثقافي للفرد والمجتمع على حد سواء، وترتفع مدايمه على أسس سليمة تكون اللبنات الصالحة لبناء الحضارة والمشاركة في عمارتها.

وفي يقيني أن الدولة التي تريد أن تأخذ مكانها في عين الشمس وتواكب الأمم في نهضتها وتشارك في بناء العمارة الإنسانية الخالدة لا يمكنها أن تهمل العناية بثقافة المجتمع وثقافة الفرد، فالعناية بهما طريق الخلاص وصمام الأمان من هذا الاضطراب الذي نعاني منه في شؤوننا جميعاً.

وبعد، فهذه محاولة حدائي إليها رغيتي المخلصة في أن أضع أمام الغرسات التي نريد لها أن تزكو وتثمر ويحلو منها العطاء، أن أضع مشكلة هي في الصميم من مشاكلنا. عليها توضح بعض جوانب المشكلة وتدفع من يدهم الأمر والنهي إلى التعجيل في وضع الحلول الناجعة قبل أن يسبقنا الركب ويفوتنا القطار.

## دكتور نزيه كباره

- من مواليد طرابلس - لبنان ١٩٣٦.
- أستاذ في كلية الحقوق - الجامعة اللبنانية - الفرع الثالث .
- رئيس المجلس الثقافي للبنان الشمالي منذ العام ١٩٧٩ وحتى الآن.
- عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين .
- حائز الشهادات الآتية :
- دكتوراه دولة في الحقوق من كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية ١٩٨٠.
- دبلوم دراسات عليا في القانون العام ١٩٧٠.
- دبلوم دراسات عليا في القانون الخاص ١٩٧٥.
- دبلوم في التخطيط التربوي من المركز الاقليمي لتخطيط التربية وإدارتها في البلاد العربية ، بيروت ١٩٦٩.
- دبلوم في التخطيط التربوي المتقدم من المركز نفسه ١٩٧٢.
- الإجازة في الحقوق ١٩٦٣ .  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>
- الكفاءة للتعليم الثانوي من معهد المعلمين العالي في الجامعة اللبنانية ١٩٥٨.
- الإجازة في اللغة العربية وآدابها من المعهد المذكور ١٩٥٧.
- مؤلف وباحث ومحاضر : له العديد من المقالات والأبحاث المنشورة.
- من مؤلفاته :
- ١- دروس في قواعد اللغة العربية ، لطلاب كلية الآداب في الجامعة اللبنانية - دار العلم للملايين ١٩٧٧.
- ٢- العقود المسماة ، ١٩٩٥.
- ٣- المؤسسات الاجتماعية والسياسية في الدولة الحديثة - النموذج اللبناني - مطبعة ثلاثة ١٩٩٥.
- ٤- عبد الرحمن الكواكبي - حياته - عصره - أفكاره الإصلاحية - دار جروس برس طرابلس ١٩٩٤.
- ٥- النظام القانوني لأفراد الهيئة التعليمية ، دار جروس برس ١٩٩٣.
- ٦- سلسلة من أربعة أجزاء في التربية المدنية لطلاب المرحلة المتوسطة - دار الشمال - طرابلس لبنان - ١٩٧٠ - ١٩٧٣.

# بيني و... بينك

شعر : د. د. أحمد سليم الحمصي



بيني وبينك جدول  
من زقزقلت الطير ،  
ناء به الهواء ،  
وسحابة مطّارة  
من فوعة الأزهار ،  
تهمي باتجاه الضوء  
في جـوز الفضاء . .

\* \*

بيني وبينك واحة من أحرف ،  
كلماتها هيف يملن  
كما تميل الجيد فوق الهودج ،  
ومجرة شمطاء من ألق الكرامة  
زهرها من ياسمين . .

\* \_ \*

بيني وبينك ضفّتا حبّ  
جرى عذبا زلال ،  
وخلا من الأتراح والأملح

يُرفضُ ابتهاجاً ،  
حُبَّ زها في أضلعي أملا يسيلُ  
بلا كلال ..

بيني وبينك ما يُرى لا ما يقالُ  
بيني وبينك عن يمينِ جنتان وعن شمال ..  
بل رايةً مقسومة رأين كلَّ منهما  
سيف له ظبَّتَانِ من فكرٍ ومن عُمرٍ ،  
إذا انْتُلِمَتْ سيوفُ الهِندِ  
لم يُثْلَمْ على مرِّ الخيال ..  
\* — \*

بيني وبينك طاقة ممهورةً بالحق ،  
لا يثفون رايكن يزأرُ ،  
وشهادة مذبوحة بالمين  
لا يخفى ولا هو يظهر ..  
بل جابةً من غير تسأل ،  
وأسئلةً تموت ولا جواب ..  
ومحجّةً للحرف يستعلي على هام الخطاب ..  
أنا من سلحفاة اللفيضة رُحْتُ حتى أرنب الأفكارِ  
أستجلي رُموزَ المسألة  
ومن الذبول إلى الشباب ،  
ومن ابتداء القول منك إلى انتهاء المرحلة ..  
\* — \*

بيني وبينك ما يشاء الله من نار وماء ..  
 بيني وبينك دُجِيَّةٌ تَدْجُو وَفَجْرٌ يَنْفَجِرُ ،  
 بل جمرة مكشوفة الوجهين تجتر الضياء ،  
 بل موجة حرى تمد لسانها للصخر  
 تنحته بيوتا لليمام ..  
 بل شمعدان من دخان أبيض ،  
 يغبوه وجهان : وجه هامر أبداً  
 ووجه مغمض ..

\* — \*

بيني وبينك كلمة مدفونة في الحبر  
 لا حرفاً هي اتبع لست ولا فعلاً  
 ولا اسماً من رجاء  
 بل طاقة مجروحة من كل محروم الإباء ،  
 بل زورة كشفت مسافة أنممع  
 في الجفن لا ترقا ،  
 ويثراً عابها طول الرشاء ..  
 بيني وبينك ما يشاء الله من نار وماء ..  
 بيني وبينك من يشاء ..